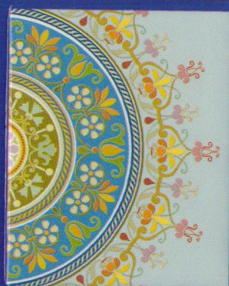
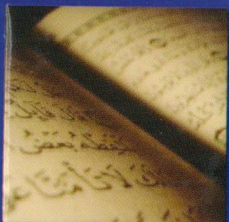
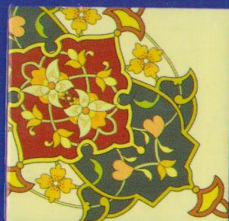


الأنبياء ومسارات المحن



السيد
زهير العلوي

دارُ المِحنة البيضاء

الأنبياء
ومسارات المحن

محفوظات جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٢٨٧١٧٩/٠٣ - تليفكس: ٥٥٢٨٤٧/٠١ - ١/٥٤١٢١١

E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com

info@daralmahaja.com



السيد زهير العلوي

الأنبياء ومسارات المحن



دار المحجة البيضاء



كلمة لا بد منها

كان العزم طباعة هذا الكتاب قبل أكثر من خمسة عشر عاماً، ولكن حالت الحوائل، وتلاحقت الظروف الصارفة، ولما تلاشت العوالق، وتذلت الصعاب، ها هو بين يديّ القارئ.

راجياً أن يكون نافعاً، وفي ميزان والديّ مُرجحاً، فقد كتباه بدموعهما لا بمدادي، وبنديّ أناملهما، لا بيراع بناني.

تقديم سماحة الشيخ حسن موسى الصفار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطاهرين وصحبه الطيبين.

كلما تقدمت البشرية ماديا اشتدت حاجتها إلى القيم الروحية والأخلاقية، ذلك أن المكاسب المادية تفرز وتنتج مضاعفات نفسية وسلوكية، والعلاج ليس بإيقاف مسيرة التقدم المادي، وإنما مواكبته بتقدم روحي أخلاقي مناسب.

وأزمة البشرية اليوم تكمن في تجاهل هذه الحقيقة، فأصبحت المجتمعات المادية تعاني من فقر وخواء روحي أخلاقي، تفاقمت بسببه الأزمات النفسية والاجتماعية والسلوكية، فازدادت نسبة الأمراض العصبية، وتضاعفت أرقام الجريمة والعدوان واتسعت رقعة الشقاء والتعاسة لإنسان الأرض.

وما انتشار طاعون العصر الذي هو مرض نقص المناعة المعروف

بالإيدز إلا مظهر من مظاهر شقاء الإنسان في ظل حضارة المادة الفارغة من القيم والالتزام الخلقي ومن أواخر أخبار هذا الطاعون ما تناقلته الصحف من أن مدينة (سان فرانسيسكو) في الولايات المتحدة الأمريكية قد أعلنت الحداد يوم ٨ / ١ / ١٩٩٣ م ونكست الأعلام بعد وفاة الضحية الرقم عشرة آلاف لمرض نقص المناعة المكتسب (إيدز) في المدينة! وأصبحت بذلك المدينة الثالثة في عدد ضحايا (الإيدز) بعد (نيويورك) التي أعلنت وفاة ٣٠٧٧٢ ضحية! ولوس أنجلوس التي فقدت ١٢٢١٣ ضحية!^(١)

أما الإحصائيات والأرقام التي تتحدث عن آلام الفقر والجوع في هذا العالم فمحزنة ومخزية جدا للحضارة السائدة والتي تحتكر فيها الثروات والقدرات والإمكانات فئة محدودة من أبناء البشر بينما يعيش الأغلبية حالة مزرية من الحرمان والفقر.

يقول أحد التقارير الواردة في هذا المجال:

لقد أنتج العالم من الأغذية خلال السنوات العشرين الماضية أكثر مما استهلك ومع ذلك فهناك نحو ٧٨٠ مليون إنسان محرومين من الحصول على غذاء كاف.

هذا الواقع أكدته المؤتمر الدولي الأول المعني بالتغذية الذي بدأ أعماله أمس في روما في حضور ممثلي ١٨٢ دولة.

إن هناك ١٩٠ مليون طفل يعانون نقص العناصر الغذائية المهمة

في الطعام مما يسبب العمى والتخلف العقلي والوفاة.

إلى ذلك تتسع ظاهرة الإفراط في استهلاك الطعام التي تؤدي إلى الإصابة بأمراض السمنة والقلب والأوعية الدموية والسكري^(١).

هذا فضلا عن الحروب والنزاعات الدموية المرعبة التي تعم الكثير من أرجاء العالم، وتغذيها مصانع الأسلحة بوسائل الفتك والدمار..

ولسنا الآن بصدد استعراض مشاكل الإنسانية وأزماتها وآلامها فهناك بحوث متخصصة تقدم الكثير من الحقائق والإحصائيات والأرقام في هذا المجال، لكننا نريد التأكيد على أن العلاج والحل يكمن في توجه البشرية واهتمامها بالجانب الروحي والأخلاقي، وإلا فالاعتماد على التكنولوجيا والعلم فقط لن يؤدي إلا إلى تفاقم المشاكل والأزمات.

وأكبر دليل على ذلك أن الكثير من رواد العلوم وكبار المخترعين والمكتشفين الماديين، لم يكونوا هم في حالة نفسية وسلوكية جيدة رغم تفوقهم العلمي.

ونستشهد هنا بـ(البرت اينشتاين) الرجل الذي وضع النظرية النسبية، فقد صدر عن حياته أخيرا كتاب جديد ألفه الكاتبان البريطانيان (روجر هايفيلد/ بول كارتير) ويؤكد هذا الكاتب على هذا (اينشتاين) كان فاشلا في حياته الخاصة، وكان زير نساء، شرسا قاسيا مع أطفاله،

وأباً لابنة غير شرعية لم يرها ولا اعترف بها تدعى (ليزريل).

وتكشف وثائق ومستندات بينها رسائل شخصية ضمن العائلة: أن زواج اينشتاين الأول من (ميليفا مريك) أدى إلى الطلاق بسبب علاقة سرية ربطته بقرييته (إلسا).

وتشير الرسائل إلى شراسة اينشتاين حيال زوجته (ميليفا) أثناء فراقهما، مما أصابها بانهايار عصبي لم تشف منه حتى وفاتها.

وتنسحب تلك الشراسة على معاملته مع ولديه (هاز البرت) الولد البكر وكان في الخامسة عشرة من عمره عندما غادر والده المنزل العائلي، و (ادوارد الأصغر) الذي أصيب بالخبال بعد طلاق أبويه، وأمضى حياته في عيادة سويسرية للأمراض العصبية، فلم يزره والده مرة^(١).

فالعلم وحده لا يكفي لترشيد حياة الإنسان وإسعادها، بل لابد من نبع روحي يرتوي منه فيطمئن قلبه بذكر ويستقيم سلوكه بتعاليم الدين.

وهنا يأتي دور الأنبياء والرسل الذي يمثلون ينايع الهداية والإرشاد المتدفقة بإذن الله تعالى في حياة البشر، لتروي ظمأهم الروحي، وتسقى نوازع الخير في نفوسهم.

لكن إنسان اليوم -غالباً- لا يعرف قدر أنبياء الله العظام، ولا

(١) جريدة الحياة، ٢/ أغسطس / ١٩٩٣ م.

يدرك خطورة الدور الذي جاءوا ليؤدونه في حياة الناس وكما قال الله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١).

إن دراسة حياة الأنبياء والرسل عليهم سلام الله يعني الالتفات إلى جانب القيم والمثل، والاهتمام بمصادر الثروة الروحية للبشر، كما يعتبر دعوة ودفعاً للتأسي بحياتهم والالتزام بتوجيهاتهم وتعاليمهم الخيرة.

وهذا الكتاب الجميل المائل بين يدي القارئ هو لقطات مشرقة من حياة أنبياء الله العظام تناولها المؤلف بشيء من التفصيل والتحليل واستنتاج الدروس والرؤى والعبر.

والمؤلف شاب نشأ في طاعة الله، وهو سليل عائلة هاشمية كريمة، وقد وفقه الله تعالى لسلوك طريق طلب العلم الديني، نسأل الله تعالى له دوام التوفيق والتقدم والنجاح.

وقد أعجبني من كتابه حسن اختياره لهذا الموضوع، واجتهاده في الرجوع إلى العديد من المصادر والمراجع، إضافة إلى سلاسة أسلوبه، وجميل التفاتاته التوجيهية.

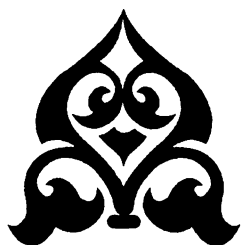
أرجو أن يستمر السيد المؤلف حفظه الله في متابعة بحوثه حول بقية الأنبياء، ليقدم للجيل الناشئ سلسلة أو موسوعة متكاملة عن تاريخ الأنبياء والرسل.

شكر الله سعيه ونفع القراء بكتابه ووفقه إلى المزيد من التقدم
والعطاء في مختلف الميادين فالله ولي التوفيق والحمد.

حسن الصفار

٩ / ٦ / ١٤١٤ هـ

٢٢ / ١١ / ١٩٩٣ م



آدم عليه السلام

في الجنة... على الأرض

تمهيد

سيرة آدم عليه السلام وتاريخ حياته قصة إنسان كريم الذرا والطبيعة صاحب القدم الراسخة في مواجهة الشر وبواعثه، وعلى رأسه إبليس حتى تقطعت بإبليس الأسباب، وأعيته الحيل، بعدما فهم آدم عليه السلام هذا الشيطان، وقال كلمته المشهورة: «رب هذا الذي جعلت بيني وبينه العداوة لم أقوَ عليه وأنا في الجنة وإن لم تعني عليه لم أقوَ عليه».

لقد عرف آدم عليه السلام عدوه، ودرس أساليبه، وفهم زخرف قوله رغم رونقه وجمال أسلوبه، فسار على سبيل سوء وحد الحق، فأصبح بحق الرجل السليم عالي القدر.

ولعل العبرة ومحصلوها في قصة آدم عليه السلام تمثلت في مواجهة الشر وبواعثه وقد حاولتُ استخلاص ورسم خطوط تجربته عليه السلام وفق معطيات سيرته التي ذكرت في القرآن العزيز والروايات الشريفة، فأرجو أن أكون قد وفقت لذلك، وما توفيقي إلا بالله.

آدم ﷺ ليس أول من سكن الأرض

كانت الأرض قبل خلق آدم ﷺ مسكونة بالجن عُرف بالنسناس^(١) التي قيل أنها كائنات تشبه الإنسان، ويؤيد ذلك اكتشاف آثار قوم درجوا وانقرضوا «وقد قرر علم الأثرولوجيا أن الأرض سكنها أنواع من البشر قبل آدم معتمدا على تحليل وفحص الجماجم والعظام المتحجرة التي وجدت في أنحاء المعمورة، والتي قدّر العلماء على أنها بعضها يرجع عمرها إلى مليون سنة وبعضها إلى ثلاثة أرباع المليون والبعض إلى أقل من ذلك، فإنسان جاوه هو أقدم إنسان حفري ثم يليه إنسان بكين ثم إنسان صولو فإنسان بلنداون ثم هيلدبرج ثم انسلدروديسيا ويأتي في نهاية هذا التصنيف الزمني للأشكال البشرية إنسان تياتدرتال الذي يظن أنه هو الجد المباشر للإنسان العاقل، وقد ساد هذا النوع في الفترة بين ١٣٠,٠٠٠ سنة إلى ٧٠,٠٠٠ سنة ق.م، وانتشر في جهات كثيرة من العالم»^(٢).

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٠٣.

(٢) مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص ٤٦، عفيف طباره.

وأيدت بعض الروايات المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام وجود إنسان قبل آدم.

عن جابر بن يزيد، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله عز وجل: ﴿أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ قال: يا جابر تأويل ذلك أن الله عز وجل إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم وسكن أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار جدد الله عالماً غير هذا العالم وجدد خلقاً من غير فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحّدونه، وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم، وسماء غير هذه السماء تظلمهم، لعلك ترى أن الله إنما خلق هذا العالم الواحد، وترى أن الله لم يخلق بشراً غيركم، بلى والله لقد خلق الله ألف ألف عالم، وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين^(١).

ولم يصلنا عن أحوال الجن والنسناس سوى ذرة من خبر، وهو أنهم سفكوا الدماء وكسروا بينهم رمحاً فوقعت الشرور بينهم، وارتهسوا واضطربوا في الفتن، وكان هذا الفساد من دواعي خلق آدم عليه السلام لإعمار الأرض بالصلاح والخير.

عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى لما أحب أن يخلق خلقاً بيده وذلك بعد ما مضى للجن والنسناس في الأرض سبعة آلاف سنة، قال: ولما كان من شأن الله أن يخلق آدم للذي أراد من التدبير والتقدير لما هو مكوّن في السماوات والأرض وعلمه لما أراده من ذلك كله كشط عن أطباق السماوات، ثم قال للملائكة: انظروا إلى

أهل الأرض من خلقي من الجن والنسناس. فلما رأوا ما يعملون فيها من المعاصي وسفك الدماء والفساد في الأرض بغير الحق، عظم ذلك عليهم وغضبوا لله وأسفوا على أهل الأرض ولم يملكوا غضبهم أن قالوا: يا رب أنت العزيز القادر الجابر القاهر العظيم الشأن، وهذا خلقك الضعيف الذليل في أرضك يتقلبون في قبضتك ويعيشون برزقك ويستمتعون بعافيتك وهم يعصونك بمثل هذه الذنوب العظام لا تأسف ولا تغضب ولا تنتقم لنفسك لما تسمع منهم وترى، وقد عظم ذلك علينا وأكبرناه فيك.

فلما سمع الله عز وجل ذلك من الملائكة قال: «إني جاعل في الأرض خليفة لي عليهم، فيكون حجة لي عليهم في أرضي على خلقي»، فقالت الملائكة: «سبحانك أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك»، وقالوا: فاجعله منا فإننا لا نفسد في الأرض ولا نسفك الدماء. قال الله جل جلاله: يا ملائكتي ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) إني أريد أن أخلق خلقا بيدي أجعل ذريته أنبياء مرسلين، وعبادا صالحين، وأئمة مهتدين، أجعلهم خلفائي على خلقي في أرضي، ينهونهم عن معاصي، وينذرونهم عذابي، ويهدونهم إلى طاعتي، ويسلكون بهم طريق سبيلي^(٢).

وقد خلق آدم من أديم الأرض، وذلك أن الله تبارك وتعالى بعث جبرئيل وأمره أن يأتيه من أديم الأرض بأربع طينات: طينة بيضاء وطينة حمراء وطينة غبراء وطينة سوداء وذلك من سهلها وحزنها ثم أمره أن

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠.

(٢) بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٦٠ - ص ٨٢ - ٨٣.

يأتيه بأربع مياه: ماء عذب وماء ملح وماء مرّ وماء منتن ثم أمره أن يفرغ الماء في الطين وأدمه الله بيده فلم يفضل شيء من الطين يحتاج إلى الماء ولا من الماء شيء يحتاج إلى الطين^(١).

وفي خطبة قسّم علي عليه السلام مراحل خلق آدم عليه السلام على أربع مراحل:

- ١- إعداد الطين.
- ٢- خلط الطين بالماء.
- ٣- جعل الأعضاء لصورة آدم.
- ٤- تماسك الأجزاء حتى أصبح جسماً واحداً يابساً ميتاً.

يقول عليه السلام: ثم جمع سبحانه من حزن الأرض (وعرها) وسهلها، وعذبها وسبخها، تربة سنّها بالماء (صبها) حتى خلصت. ولاطها (عجنها) بالبلّة حتى لزبت (اشتدت). فجبل منها صورة ذات أحناء ووصول وأعضاء وفصول. أجمدها حتى استمسكت، وأصلدها (صلبه) حتى صلصلت (بيست). لوقت معدود. وأمد معلوم. ثم نفخ فيها من روحه فمثلت إنساناً ذا أذهان يجيلها. وفكر يتصرف بها، وجوارح يخدمها (يجعلها في خدمته)، وأدوات يقلبها. ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل والأذواق والمشام والألوان والأجناس. معجونا بطينة الألوان المختلفة، والأشياء المؤتلفة. والأضداد المتعادية والأخلاق المتباينة. من الحر والبرد. والبلّة والجمود^(٢).

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٠٣.

(٢) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام - ج ١ - ص ٢٠ - ٢١.

طينة حواء

حينما تمّ خلق جسم آدم خلق الله من فضلة الطينة حواء ﷺ، عن عمرو بن أبي المقدام، عن أبيه قال: سألت أبا جعفر ﷺ: من أي شيء خلق الله حواء؟ فقال: أي شيء يقول هذا الخلق؟ قلت: يقولون: إن الله خلقها من ضلع من أضلاع آدم، فقال: كذبوا، كان يعجزه أن يخلقها من غير ضلعه؟ فقلت: جعلت فداك يا بن رسول الله من أي شيء خلقها؟ فقال: أخبرني أبي، عن آبائه ﷺ قال: قال رسول الله: إن الله تبارك وتعالى قبض قبضة من طين فخلطها بيمينه^(١) - وكلتا يديه يمين - فخلق منها آدم، وفضلت فضلة من الطين فخلق منها حواء^(٢).

وقد وردت أخبار أن حواء ﷺ خلقت من ضلع آدم ﷺ إلا أنها محملة على أنها خلقت من طينة ضلع من أضلاعه^(٣).

ونفخت فيه من روحي

بقي آدم ﷺ بلا روح إلى أمد معين، فكان ملقى في الجنة مرهوف لطيف البدن سبط الجسم حسن القدّ وكان إبليس يغاديه

(١) وقد ورد أن الله خلق آدم ﷺ بيديه «فَقَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي» وليس المراد باليد على الحقيقة بل كناية عن القدرة وفي هذا يقول أبو عبد الله: «أفترى الله يبعث الأشياء بيده» أي أنه لو كان خلقه تعالى الأشياء بالجوارح لكان خلق الجميع بها فلا وجه للاختصاص «بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٥٣.

(٢) بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١١ - ص ١١٦.

(٣) المصدر السابق.

ويراوحه، وكان ينفث عن حقه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ولما خلق الله آدم قبل أن ينفخ فيه الروح كان إبليس يمر به فيضربه برجله فيدب فيقول إبليس لأمر ما خلقت»^(١).

وكانت الملائكة تمر به هي الأخرى تُخَمُّ ثياب آدم وتثني عليه خيراً لما عرفت أن الله رفع منزلته وشأنه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كانت الملائكة تمر بآدم، وهو ملقى في الجنة من طين فتقول لأمر ما خلقت»^(٢).

وحين نفخ الله في ذلك الجسد الروح فقام منتصباً وفيه زمكة وعجل، والروح التي نُفِخَتْ في آدم عليه السلام روح مخلوقة مصنوعة، وإضافة الله سبحانه الروح له في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ لتفضيله، عن محمد بن مسلم قال سألت أبا جعفر عن قول الله عز وجل: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ قال: روح اختاره الله واصطفاه وخلقه وأضافه إلى نفسه وفضله على جميع الأرواح فأمر فنفخ منه في آدم^(٣).

وفي رواية أخرى: «.. وإنما أضافه إلى نفسه لأنه اصطفاه على سائر الأرواح كما اصطفى بيتاً من البيوت فقال: بيتي، وقال لرسول من الرسل خليلي وأشبه ذلك، وكل ذلك مخلوق مصنوع محدث مربوب مدبر»^(٤).

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٥٣.

(٢) قصص الأنبياء، الرواندي، ص ٤٥.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١١.

(٤) المصدر السابق.

ملاحظات

١- نظرية القرد المتمدن

ما ذكر سابقا هي نظرية الإسلام والأديان بصورة عامة حول خلق آدم ﷺ والإنسان، لكن هناك نظرية انتشرت في فترة الصراع بين الكنيسة والثوار في فرنسا، وهي معروفة بنظرية (داروين) وهي نظرية فيها مزاعم غير مستقيمة لا تليق بإنسان ولا تزكو بصاحبها.

فهو يعتقد أن الإنسان بدأت حياته بجراثومة صغيرة ظهرت على سطح الماء ثم تحولت إلى حيوان صغير ثم تدرج هذا الحيوان فأصبح ضفدعا فسمكة فقرداً، ثم ترقى هذا القرد وتمدن فصار إنساناً.

فالإنسان في نظره قرد متمدن، والطريف، كيف لم يتطور بعد القرد الموجود في زماننا وهل يمكن أن يصير البرغوث فيلا وأن تنقلب النملة نعجة ويصبح الهر أسد بمر القرون وكر الدهور.

يقول الأستاذ (فيركو) الألماني وهو من أعلام علم الأنثروبولوجيا (التاريخ الطبيعي للإنسان): إن جميع الترقيات الحسية التي حدثت في

دائرة علم الانتروبولوجيا السابقة على التاريخ تجعل القرابة المزعومة بين الإنسان والقرود تبعد عن الاحتمال شيئا فشيئا فإذا درسنا الإنسان الحفري في العهد الرابع وهو الذي يجب أن يكون الإنسان فيه أقرب إلى أسلافه نجد إنسانا مشابها لنا كل الشبه فإن جماجم جميع الرجال الحفريين تثبت بطريقة لا تقبل المنازعة بأنهم كانوا يؤلفون مجتمعا محترما للغاية وكان حجم الرأس فيهم على درجة يعتبر الكثير من معاصرينا أنهم سعداء إذا كان لهم رأس مثله^(١).

٢- نسل وبدون نسل

لقد خلق آدم ﷺ من دون واسطة نسل، وخلق عيسى ﷺ من دون أب، وخلق بقية الناس من أب وأم، إن هذا التنوع لحكمة من الله عز وجل، ولتكون قدرة الله ظاهرة جليلة في قلوب الناس، فحين يرى البشر تكرار التناسل يصبح طبيعيا مألوفا حتى اعتقد بعضهم أن هذا النسل صنع الطبيعة، فكان خلق عيسى ﷺ مثال للقدرة والإعجاز وحين ينكر إنسان خلق عيسى ﷺ بزعم عدم المعقولية فيكون آدم ﷺ المثل فقد خلق من دون أب وأم.

عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله ﷺ: «لأي علة خلق الله عز وجل آدم من غير أب وأم، وخلق عيسى ﷺ من غير أب وخلق ساير الناس من الآباء والأمهات؟ فقال: ليعلم الناس تمام قدرته وكمالها، ويعلموا أنه قادر على أن يخلق خلقا من أنثى من غير ذكر، كما

هو قادر على أن يخلقه من غير ذكر ولا أنثى وأنه عز وجل فعل ذلك ليعلم انه على كل شيء قدير^(١).

٣- لماذا خلق آدم من تراب؟

الجواب: لأمرين، ابتلاء الخلق من الملائكة (وهم المخلوقون من نور) بذلك المخلوق من طين، ورفعاً للاستكبار والخيلاء، يقول علي عليه السلام: «ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياؤه، ويبهز العقول رواؤه، وطيب يأخذ الأنفاس عرفه لفعل. ولو فعل لظلت له الأعناق خاضعة، ولخفت البلوى فيه على الملائكة. ولكن الله سبحانه يتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله تمييزاً بالاختبار لهم ونفياً للاستكبار عنهم، وإبعاداً للخيلاء منهم»^(٢).

وحينما يذكر الإسلام الإنسان بجذوره الترابية ويذكره دائما بذلك فذلك لرفع الإنسان إلى مستوى أخلاقي سام، بعيداً عن العجب والخيلاء، وليس كما قال المستشرق النمساوي جروينباوم: والإسلام منذ بدايته لم يعترف للإنسان إلا بقليل من التقدير وينزع القرآن إلى إقناعه بمهانة أصله الجسدي^(٣).

(١) علل الشرائع - الشيخ الصدوق - ج ١ - ص ١٥.

(٢) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام - ج ٢ - ص ١٣٨.

(٣) مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص ٤١، عفيف طيارة.

إبليس يعلن الحرب على آدم عليه السلام

أوصى الله الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام قائلاً: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(١) فسمعت الملائكة الوصية وحفظتها، وحين صور الله آدم عليه السلام وبقي أربعين سنة ملقى في الجنة دون أن ينفخ الله فيه الروح^(٢)، كان يمر عليه إبليس ويقول كيف أسجد لمخلوق من طين وأنا مخلوق من نار؟!

فُسقي قلبه عداوة آدم، وخشن صدره عليه، وأظهر قراراً كان في سريره وهو ينظر لآدم عليه السلام ويقول: «لئن أمرني الله بالسجود لهذا لعصيته»^(٣)، أما الملائكة فقد قالت في نفسها: «ما كنا نظن أن الله خلق خلقاً أكرم عليه منا فنحن جيرانه ونحن أقرب خلقه إليه»^(٤).

(١) سورة ص، الآيتان ٧١-٧٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٠٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق، ص ١٤٨.

شتان بين ما يدور في خلد إبليس، وما يجري في نفوس الملائكة، فأبليس كل همه واهتمامه يتمحور حول ذاته وعنصره (وأنا مخلوق من نار)، وأما الملائكة فتقيس الأمور من جهة القرب من الله عز وجل (ونحن أقرب خلقه إليه).

وموقف إبليس المباین للملائكة يجرنا للحديث عن عنصره، فهو ليس عليه نوكة الملائكة، وكان من الجن، يقول الشيخ المفيد: «لم يكن إبليس من الملائكة بل كان من الجن، وقد جاءت الأخبار به متواترة عن أئمة الهدى سلام الله عليهم»^(١).

وأما إدخال إبليس في خطابه الموجه للملائكة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾^(٢) محمولة على أن الله تعالى إنما أدخله في لفظ الملائكة لأنه كان مخلوطاً بهم وكونه ظاهراً منهم وإنما وجه الخطاب في الأمر بالسجود إلى هؤلاء الحاضرين وكان من بينهم فشملة الأمر أو المراد أنه خاطبهم بيا أيها الملائكة، مثلاً، وكان إبليس أيضاً مأموراً لكونه ظاهراً منهم مظهراً لصفاتهم كما أن خطاب يا أيها الذين آمنوا يشمل المنافقين لكونهم ظاهراً من المؤمنين^(٣).

والاستثناء في ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ لا يعد دليلاً قاطعاً على إثبات توافق جنسية إبليس مع جنسية الملائكة وإنما استثنى إبليس

(١) المصدر السابق، ص ١٤٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٣٥.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣١.

من السجود لآدم لأنه كان مع الملائكة، فهذا الاستثناء استثناء منقطع بمعنى أن المستثنى مختلف قطعاً عن جنس المستثنى منه، وهذا الاستثناء المذكور في الآية المزبورة شبيه بالاستثناء المنقطع في الآيتين المذكورتين ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ﴾^(١)، ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقِذُونَ﴾^(٢)... كما أن عصمة الملائكة دليل آخر على إثبات اختلاف جنسها عن جنس إبليس بدليل قوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٣) فالله تعالى نفى المعصية عن الملائكة نفياً قاطعاً، أما إبليس فلم يكن معصوماً^(٤).

سجود تحية لا عبادة

ولما تم خلق آدم ونفخت فيه الروح طلب سبحانه من الملائكة أن يؤدوا الودعة والوصية (السجود لآدم) فأسبأت الملائكة لأمر الله ووضعوا أجباهم على الأرض^(٥).

وهذا السجود لم يكن سجود عبادة من دون الله (حاشاهم)، ولكنه اعتراف لآدم بالفضيلة ورحمة من الله له^(٦)، وحول هذا يقول العلامة المجلسي رحمه الله:

(١) سورة النساء، الآية ١٥٧.

(٢) سورة يس، الآية ٤٣.

(٣) سورة التحريم، الآية ٦.

(٤) إبليس في القرآن، ص ٢٧، محمد باقر حجتى.

(٥) المصدر السابق، ص ١٣٩.

(٦) المصدر السابق.

اعلم أن المسلمين قد أجمعوا على أن ذلك السجود لم يكن سجود عبادة لأنها لغير الله تعالى توجب الشرك، ثم اختلفوا على ثلاثة أقوال:

الأول: أن ذلك السجود كان لله تعالى، وآدم على نبينا وآله وعليه السلام كان قبلة، وهو قول أبي علي الجبائي وأبي القاسم البلخي وجماعة.

والثاني: أن السجود في أصل اللغة هو الانقياد والخضوع، قال الشاعر: ترى الأكم فيها سجداً للحوافر. أي الجبال الصغار والتلال كانت مذلة لحوافر الخيول، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ وأورد عليه بأن المتبادر من السجود وضع الجهة على الأرض فيجب الحمل عليه ما لم يدل دليل على خلافه، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ ويدل على صريحاً بعض الأخبار المتقدمة.

والثالث: أن السجود كان تعظيماً لآدم، على نبينا وآله وعليه السلام، وتكرمة له، وهو في الحقيقة عبادة لله تعالى لكونه بأمره، وهو مختار جماعة من المفسرين^(١).

ويؤيد الثالث ما ورد في جواب مسائل الزنديق عن أبي عبد الله أنه سأل: يصلح السجود لغير الله؟ قال: لا، قال: فكيف أمر الله الملائكة بالسجود، فقال: إن من سجد بأمر الله فقد سجد لله فكان سجوده لله

إذا كان عن أمر الله^(١).

ثم أنه قد ظهر بذلك أن السجود لا يجوز لغير الله ما لم يكن عن أمره، وأن المسجود له لا يكون معبوداً مطلقاً بل قد يكون السجود تحية لا عبادة، وإن لم يجز إيقاعه إلا بأمره تعالى وأن أمره سبحانه للملائكة بالسجود لأدم يدل على أفضليته وتقدمه عليهم^(٢).

أما إبليس فأخرج ما في قلبه من سخيمة على آدم ﷺ فأرتكس وأبى أن يسجد وكأنه قال: لا أفعله حدا الدهر وأبد، وهذا «الرفض ينسجم مع مشاعر الكبرياء والعنصرية التي يحملها بين جناحيه، تلك العنصرية التي تربط قيمة الكائن ودوره بالعنصر الذي يتكون منه ولا تلتفت إلى الخصائص الروحية والفكرية والعملية التي تتميز فيها الموجودات وتحرك حياتها من أجل الوصول بها إلى أسمى المراتب وأرفع الدرجات»^(٣).

وقد ظهرت عنصرية إبليس جليلة حين قال وهو يسحب ذيله متبخرأ بعد سؤال الله له ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

وكلمة إبليس بعيدة المرامي، تصل أعماقه وتكشف أوهامه، قال الإمام الصادق ﷺ: «أول من قاس إبليس واستكبر والاستكبار هو

(١) المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٠.

(٣) الحوار في القرآن، ص ٤٠٨.

أول معصية عصى الله بها»^(١) وقال ابن عباس: «أول من قاس إبليس
فاخطأ القياس فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله بإبليس»^(٢).

شبهة قياس أم قياس للتمرد

ظن إبليس أن النار إذا كانت أشرف من الطين لم يجز أن يسجد
الأشرف للأدون، وهذا خطأ لأن ذلك تابع لما يعلم الله سبحانه من
مصالح العباد. وقد قيل أيضاً أن الطين خير من النار لأنه أكثر منافع
للخلق من حيث إن الأرض مستقر الخلق وفيها معائشهم ومنها تخرج
أنواع أرزاقهم والخيرية إنما يراد بها كثرة المنافع^(٣).

وقيل أخطأ أيضاً حيث ظن أن الفضيلة تكون بواسطة المادة فقال:
خلقتني من نار وخلقته من طين، مع أن الفضيلة تكون بما هو منشأ للآثار
ومصدر الأمور والأفعال، وإليه أشار الله تعالى بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ
رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أضاف الروح إلى نفسه تشريفاً وتعظيماً له،
وإيعازاً إلى أنه الموجب لاستحقاق السجود والتعظيم^(٤).

ولأن إبليس يعرف ما يعني رفضه لأمر الله، فقام بالمساومة من
أجل أن يرضي كبريائه ويشفى غليله الذي جعله ما به من ذراع وطاعة
للسجود لآدم عليه السلام وفي ذات الوقت ينقذ نفسه من العذاب وغضب
الله، فقام قائلاً: «يا رب اعفني من السجود لآدم وأنا أعبدك عبادة لم

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٤١.

(٢) بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٣٢.

(٣) بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٣٢.

(٤) بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١١ - هامش ص ١٣٢.

يعبدكها ملك مقرب ولا نبي مرسل».

وجاءه جواب الله رصيف لا يُرد: «لا حاجة لي إلى عبادتك إنما أريد أن أعبد من حيث أريد لا من حيث تريد»^(١).

فموضوع عبادة الله ليس عملية شكلية تتمثل في أوضاع معينة من أعمال الإنسان بل هي الخضوع لله في كل ما يريده بالطريقة التي يريدها بعيدا عن كل نوازع النفس ودوافعها.

وحين أصر إبليس على المعصية وهو في ذيل ذائل وهون شديد قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴿.

وكان إبليس يعرف أن الله لا يضيع أجر عامل، فزlj من فيه كلام منادياً ربه: «يا رب فكيف وأنت العدل الذي لا يجوز فتواب عملي بطل»، عن الصادق ﷺ أن عمل إبليس هو ركعتين ركعهما في السماء في أربعة آلاف سنة^(٢).

لقد أراد إبليس أن يجير إمكاناته ومنها ثواب أعماله في حربه ضد آدم ﷺ، فسأل عن ثوابه، فقال الله له: «سلني من أمر الدنيا ما شئت ثوباً لعملك» فكانت مطالبه:

١ - البقاء ليوم الدين.

(١) المصدر السابق، ص ١٤١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٢.

- ٢- القدرة على اختراق قلوب أبناء آدم.
- ٣- أن تكون ذريته ضعف ذرية آدم ﷺ.

أسجلها الله له وأعطاه إياها، عن العالم ﷺ: «فأول ما سأل البقاء إلى يوم الدين، فقال الله: قد أعطيتك، قال: سلطني على ولد آدم، قال: سلطتك، فقال: أجرتني منهم مجرى الدم في العروق، قال: قد أجريتك، قال: لا يولد لهم واحد إلا ولد لي اثنان، وأراهم ولا يروني، وأتصور لهم في كل صورة شئت، فقال: قد أعطيتك، قال: يا رب، زدني، قال: قد جعلت لك ولذريتك صدورهم أوطاناً، قال: رب حسبي»^(١).

كانت تلك أدوات إبليس لتحطيم آدم وغواية أبنائه، وفي كلمة زوراء معوجة أعلنها إبليس صرخة، ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾^(٢)، ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾^(٣).

هكذا أخذ إبليس يحطم مستقبله، ويلقي نفسه بين سمع الأرض وبصرها وكأنه لا يدري أي مصير ينتظره، كل ذلك ليروي حقه على آدم ﷺ من دون أن يصدر من آدم ﷺ موقفا يبرر لإبليس بغضه الدفين له، فآدم ﷺ ميت الداء، لا يحقد على من يسيء إليه.

وأصبح إبليس ذباب كثر تأذي آدم وأبنائه به، ومن أبناء آدم من

(١) المصدر السابق، ص ١٤١.

(٢) سورة ص، الآيتان ٨٢ - ٨٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٧.

يسلك مسلك إبليس ويسمى سمته (فيحقد على ذي فضل لفضله أو صاحب مكانة لمكانته أو يعادي إنساناً لمجرد المزاحمة أو المشاركة في الرياسة والمهنة.. بل وإن كثيراً من الناس يصرون على الباطل لا لشيء إلا عناداً لخصمهم ونكاية به وهم يعلمون علم اليقين أن هذا الإصرار يعود عليهم بأسوأ العواقب وأوخمها^(١)، وهذا هو شأن إبليس بالذات أصر على معصية الله وهو يسمع تهديده ووعيده مباشرة بلا واسطة ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢).

(١) في ظلال نهج البلاغة، ج ١، ص ٥١.

(٢) سورة ص، الآية ٨٥.

آدم ﷺ - إبليس - الشجرة

اقتضت الإرادة الإلهية نزول آدم من الجنة (حتى ولو كان لم يرتكب مخالفة الأكل من الشجرة المنهي عنها) بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) ولكن بأكله من تلك الشجرة فقد فوت آدم ﷺ على نفسه فرصة البقاء لمدة أطول.

وبدأت قصة آدم ﷺ والشجرة حين أمره الله أن يسكن الجنة بعد أن خلق له حواء ﷺ يسكن إليها ورسغ عليهما العيش ووسعها، وأباح لهما كل شيء في الجنة خلا شجرة عَيْنَهَا، حيث قال الله تبارك وتعالى لآدم: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾^(٢).

ولكن إبليس وسوس لهما بالأكل منها وأغراهما بأنواع المغريات وقال لهما إن ربكما لم ينهكما عن الأكل من هذه الشجرة بل إن الأكل

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ٣٥.

منها يجعلكما من الملائكة أو تكونان خالدين، فلا يقرب الموت والفناء ساحتكما ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾^(١).

ولم يزل يفتله في الذروة والغارب ويمنيه معسول الأماني ويرفؤه بالقول اللين، حتى هبت ريحه، وجرى آدم ﷺ على ما يريد وانزجر هو وزوجه له حتى أكلتا منها.

ومع بسط الكلام على قبول آدم ﷺ لقول إبليس اللعين، نؤكد أن هذه الحادثة لم تكن بالمستوى الذي يلزم آدم ﷺ بالخروج من الجنة إلى أرض الشقاء والبلاء حيث «إن النهي عن الأكل من الشجرة كان نهياً تنزيهياً وبتوضيح أكثر نقول إن الأمر الصادر من المولى لا يجب أن يتخذ على سبيل الإجبار أو الإلزام لأن كثيراً من الأحكام أو الأوامر قد تستعمل لا على سبيل الوجوب وإنما على سبيل النصيحة والإرشاد أو غير ذلك من الأوامر النديبة وذلك كقول أحدهم للآخر لا تشتري هذه السلعة من النوع الفلاني لأنها غير مضمونة بل النوع الفلاني أرجح وأفضل فإذا خالف المأمور ذلك واشترى المفضول وترك الأفضل فهذا العمل لم يرتكب ذنباً يعاقب عليه وإنما فوت الفرصة على نفسه ولم يظلم أحداً بذاك فيكون ظالماً لنفسه على النحو المجازي دون الحقيقي وكذلك الأمر بالنسبة لآدم حيث فوت الفرصة القاضية ببقائه في الجنة لمدة أطول لو لم يرتكب ما ارتكبه من التناول للثمرة المعهودة»^(٢).

وإخراج آدم بسبب تلك الشجرة لعله كان على وجه المصلحة

(١) سورة طه، الآية ١٢٠.

(٢) شبهات وردود، ص ١٥٥.

بأن يكون الله تعالى علم أن المصلحة تقتضي بتبقي آدم في الجنة ما لم يتناول من الشجرة فإذا تناول منها تغيرت المصلحة وصار إخراجها عنها وتكليفه في دار غيرها هو المصلحة^(١).

ولعل من الصعب معرفة أسباب استجابة آدم عليه السلام لإبليس، وأكله من تلك الشجرة المنهي عنها وذلك لسببين الأول أن الله عز وجل حذر آدم أشد التحذير من إبليس بقوله: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾^(٢) والثاني أن آدم عليه السلام كان يعرف أن الشجرة التي أكل منها هي شجرة منهي عنها، بدليل أن إبليس قال له: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾^(٣).

ومكمن الصعوبة ليس في فهمنا لآدم عليه السلام بل لأننا لم نفهم كيف يعمل إبليس ويوسوس في صدر الإنسان حتى يدفعه نحو الخطيئة، وعليه لابد أن نعرض السؤال بصيغة جديدة وهي كيف استطاع إبليس أن يحول يقين آدم عليه السلام بحرمة تلك الشجرة إلى عمل مشروع وجائز.

أول خطوة رسمها إبليس هي أن يتحول في نظر آدم من عدو إلى صديق وصاحب فجاء لآدم عليه السلام بصورة الناصح الأمين ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(٤) وهو يريد الريثة والخديعة لآدم عليه السلام وهو كاللص

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٠٣.

(٢) سورة طه، الآية ١١٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٢٠.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٢١.

المترصّد بالشر: «إني لشأنك يا آدم لمغموم» قلت: كيف؟ قال: قد كنت أنست بك وبقربك مني وأنت تخرج مما أنت فيه إلى ما ستكرهه فقلت له: وما الحيلة؟ فقال: إن الحيلة هو ذا هو معك أفلا أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى^(١).

وهكذا تحول إبليس لصديق في نظر آدم ﷺ وعلى أقل تقدير يمكن القول أن آدم ﷺ قد تصور أن إبليس ما زال عدوًّا، ولكن العدو قد ينفع في بعض الأحيان.

وجاء الأمر الأصعب على إبليس، وهو كيف يدفع آدم اتجاه الشجرة؟! فاستخدم أسلوب التشكيك حيث قال لآدم وزوجه^(٢).

وحتى يضمن إبليس نجاحه أقسم لهما ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(٣) ولم يكن آدم وحواء ﷺ شاهداً قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً فوثقاً يمينه بالله، وفي خطوة أخرى، جاء إليهما من حيث يحبان ويرغبان فقال: «إنكما إن أكلتما من هذه الشجرة التي نهاكما الله عنها صرتما ملكين وبقيتما في الجنة أبداً وإن لم تأكلا منها أخرجكما الله من الجنة»^(٤).

هنار فؤاد آدم ﷺ لحديث إبليس وارتاح وأصبح في أمر الشجرة ضعيفاً فاتراً ووهنت عزيمته، فترك يقينه - حرمة الأكل من

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٨٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٢١.

(٤) المصدر السابق، ص ١٦٢.

الشجرة - وأخذ بشكه الذي صنعه إبليس، وفي هذا يقول علي عليه السلام في نهج البلاغة: «فباع اليقين بشكه والعزيمة بوهنه» حيث الذي «يمنع من الخطيئة اليقين والإرادة، وحين يرتفعان يصبح الطريق سالكاً للخطيئة وضعف آدم عليه السلام هو الذي أدى به إلى نقض اليقين بالشك وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾^(١).

وفي قصة آدم عليه السلام مع إبليس عبرة تتلخص في عدم التهاون في مواجهة إبليس والحذر من تلبيسه، فخلال زمن قصير تسبب إبليس بإخراج آدم عليه السلام من الجنة عن رسول الله قال: «إنما كان لبث آدم وحواء في الجنة حتى خرج منها سبع ساعات من أيام الدنيا حتى أكلا من الشجر، فأهبطهما الله الأرض من يومهما ذلك»^(٢).

وآدم عليه السلام يلخص تجربته مع إبليس فيقول مخاطباً ربه: «رب هذا الذي جعلت بيني وبينه العداوة لم أقو عليه وأنا في الجنة وإن لم تعني عليه لم أقو عليه»^(٣).

واستكمالاً للبحث تعرض المفسرون لنقاط جانبية تفصيلية، واختلفوا فيها أشد اختلاف حتى أن الأخذ بأحد الآراء لا يخلو من إشكال، نذكر بعضها:

١ - موقع الجنة، فقد اختلف في جنة آدم هل كانت في الأرض أم السماء؟ وعلى الثاني هل هي الجنة التي هي دار الثواب أو غيرها؟

(١) سورة طه، الآية ١١٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٢.

(٣) بحار الأنوار، ج ٦، ص ٣٣.

فذهب أكثر المفسرين وأكثر المعتزلة إلى أنها جنة الخلد، وقال أبو هاشم: هي جنة من جنان السماء غير جنة الخلد، وقال أبو مسلم الإصفهاني وأبو القاسم البلخي وطائفة: هي بستان من بساتين الدنيا في الأرض كما يدل عليه هذان الخبران وإن أمكن اتحادهما. واحتج الأولون بأن الظاهر أن الألف واللام للعهد والمعهود المعلوم بين المسلمين هي جنة الخلد، وبأن المتبادر منها جنة الخلد حتى صار كالعلم لها فوجب الحمل عليها.

واحتجت الطائفة الثانية بأن قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا﴾ يدل على الإهباط من السماء إلى الأرض وليست بجنة الخلد كما سيذكر فلزم المطلوب.

وأجيب بأن الانتقال من أرض إلى أخرى قد يسمى هبوطاً، كما في قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾^(١) لكن الظاهر من آخر الآية كون الهبوط من غير الأرض.

ويؤيده ما سيأتي في حديث الشامي أنه سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن أكرم واد على وجه الأرض، فقال له: واد يقال له: سرنديب سقط فيه آدم من السماء.

واحتج القائلون بأنها من بساتين الأرض بوجوه:

الأول: أنها لو كانت دار الخلد لما خرج آدم منها لقوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾.

الثاني: أن جنة الخلد لا يفنى نعيمها لقوله تعالى: ﴿أَكُلْهَا دَائِمًا وَظِلُّهَا﴾، ولقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ الآية. وأجيب عنهما بأن عدم الخروج إنما يكون إذا استقروا فيها للشواب^(١).

٢- كيفية وصول إبليس إلى آدم ﷺ وحواء، حيث كان قد أخرج من الجنة حين أبى السجود وهما في الجنة، قيل إن آدم كان يخرج إلى باب الجنة وإبليس لم يكن ممنوعاً من الدنو منه فكان يكلمه وكان هذا قبل أن يهبط إلى الأرض وبعد أن أخرج من الجنة.

وقيل أنه كلمهما من الأرض بكلام عرفاه، وفهماه وقيل إنه دخل في فقم الحية وخاطبهما من فقمها، وأجيب عن الأخير، «أنها مجرد إشاعة إسرائيلية دائرة بين العامة من الناس، فالقرآن لم يشر إلى هذه الناحية أصلاً والواقع خلاف ذلك حيث أن كلام القرآن يوحى بأن إبليس كان منظوراً من قبل آدم وحواء»^(٢).

وعلى قول فيه قوة أن طرد إبليس من الجنة لا يجعل دخولها مستحيلاً عليه وأنه قد دخلها عاصياً آثماً لإغواء من حسده من أول يوم بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾^(٣).

وأخيراً نقول، مما يثير الدهشة والغرابة إن المكتشفات الأخيرة قد دلت على أن قصة آدم وحواء بما فيها قصة جنة الخلد التي وردت

(١) بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١١ - ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٢) شبهات وردود، ص ١٥٨.

(٣) قصص الأنبياء، النجار، ص ٨.

في التوراة قصة قديمة ترجع جذورها إلى عهود ما قبل التوراة.

فصة آدم وحواء نجدها مصورة على نقش سومري، يشاهد فيه رجل على رأسه قلنسوة ذات قرنين، وامرأة حاسرة الرأس جالسين الواحد أمام الآخر وقد نبتت شجرة بينهما النخل تدلى عذقان من الثمر من طرفيها، ويشاهد الرجل ماداً يده اليمنى نحو العذق أمامه ليقطف من ثمرة كما تشاهده المرأة وهي مادة يدها اليسرى نحو العذق التي أمامها، ثم تشاهد الحية وهي منتصبية على ذنبها خلف المرأة تغريها من الأكل من هذا الثمر^(١).

(١) العرب واليهود في التاريخ.

آدم ﷺ في مكة

عند غروب الشمس في يوم الجمعة المصادف للخامس والعشرين من ذي القعدة وقف آدم ﷺ بفناء الجنة مستحييا نادماً مخاطباً ربه قائلاً: «ربنا ظلمنا أنفسنا واعترفنا بذنوبنا فاغفر لنا»^(١).

فقال الله: «يا آدم أنا الله الكريم خلقت الخير قبل الشر وخلقت رحمتي قبل غضبي وقدمت بكرامتي قبل هواني وقدمت باحتجاجي قبل عذابي، يا آدم ألم أنكه عن الشجرة وأخبرك أن الشيطان عدو لك ولزوجتك وأحذر كما قبل أن تصير إلى الجنة وأعلمكما أنكما إن أكلتما من الشجرة كنتما ظالمين لأنفسكما عاصيين لي يا آدم لا يجاورني في جنتي ظالم عاص لي».

فقال: بلى يا رب، الحجة لك علينا ظلمنا أنفسنا وعصينا وإلا تغفر لنا وترحمنا نكن من الخاسرين.

هكذا أقرّ آدم وزوجه بذنبهما وأن الحجة لله عليهما، ولم يلقيا

المسئولية على الشيطان وأنه هو الذي يستحق العقاب وليس هما، وذلك لأن حُشاشا الشيطان ومبلغ جهده الوسوسة وإثارة الوعود الكاذبة والتمنيات المعسولة، وخلق الأجواء المغرية.

أما الإنسان فإنه يملك أمام ذلك العقل الذي يميز بين الخير والشر والصالح والفساد «فالإنسان يملك عملية الاختيار، وإن الصورة المألوفة لدى الكثيرين من أفراد الطبقات تحاول في كثير من أوضاعها المنحرفة أن تلقي المسؤولية على الشيطان في ذلك وتبرئ نفسها من المسؤولية»^(١)، فاتباع الشيطان هو من حلب المرء ليس إلا، والمرء لا يذوق إلا حلب أمره.

ومع اعتراف آدم عليه السلام الصريح تداركته رحمة الرحمن الرحيم فتاب عليهما إنه هو التواب الرحيم، ثم جاء الأمر الإلهي بهبوطهما إلى الأرض، هبوط كرامة لا هبوط إهانة وكيف ذاك وقد غفر لهما ربهما.

فقال الله: «يا آدم اهبط أنت وزوجك إلى الأرض فإذا أصلحتما أصلحتكما وإن عملتما لي قويتكما وإن تعرضتما لرضاي تسارعت إلى رضاكما وإن خفتما مني آمنكما من سخطي» فبكيا عند ذلك وقالوا: «ربنا فأعنا على صلاح أنفسنا وعلى العمل بما يرضيك» قال الله: «إنا عملتما سوءا فتوبا إلي منه أتب عليكما وأنا الله التواب الرحيم، قال^(٢): «فاهبطنا برحمتك إلي أحب البقاع إليك».

(١) الحوار في القرآن، ص ٤١٢.

(٢) هكذا في المصدر ولعل الأصح قالوا.

فأوحى الله إلى جبرئيل أن أهبطهما إلى البلدة المباركة مكة، فهبط بهما جبرئيل فألقى آدم على الصفا وألقى حواء على المروة^(١) نزل آدم عليه السلام وهو رائد الوساد لم يستقر من الهموم، وكيف ذاك! وفي قلبه حسرتان، حسرة على الجنة وأخرى على ذنبه، وقد حاسيته حواء عليه السلام كأساً مرة وشاركتة في تألمه، لذا حين قاما على أرجلهما رفعاً رأسيهما إلى السماء وضجاً بأصواتهما بالبكاء إلى الله تعالى، وخضعاً بأعناقهما فهتف الله بهما: «ما يبكيكما بعد رضاي عنكما».

فقال: «ربنا أبكتنا خطيئتنا وهي أخرجتنا عن جوار بنا وقد خفي عنا تقديس ملائكتك لك ربنا وبدت لنا عوراتنا واضطربنا ذنبنا إلى حرث الدنيا ومطعمها ومشربها ودخلتنا وحشة شديدة لتفريقك بيننا»^(٢).

لقد بدأت مرحلة التعب والشقاء فلا بد من مهاجمة الحوائج والسعي في رفعها. عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لما هبط آدم إلى الأرض احتاج إلى الطعام والشراب فشكا ذلك إلى جبرئيل فقال له جبرئيل: يا آدم كن حرّاً»^(٣).

بقي الألم يحك في صدر آدم عليه السلام ويؤثر في نفسه، حيث حَزَّ في نفسه كيف استجاب لإبليس، فبقي أربعين صباحاً ساجداً يبكي^(٤).

لقد هزت حادثة الشجرة وجدان آدم عليه السلام فأصبحت صفته

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٨٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١٧.

(٤) المصدر السابق، ص ١٦٢.

التأثر والبكاء في تذكر دائم، لما اقترفت يدها، عيناه تدمعان بأربعة حيث يبكي أشد البكاء، كان حذراً مُسَهِّداً حتى في كلماته طمعاً ورجاءً في العودة إلى جوار الله، وشدّ لهذا الأمر عزمه واستعدّ له، في رواية أن آدم عليه السلام لما كثر ولده وولد ولده كانوا يتحدثون عنده وهو ساكت فقالوا: يا أبه مالك لا تتكلم. فقال: يا بني إن الله جل جلاله لما أخرجني من جواره عهد إليّ وقال: أقل كلامك ترجع إلى جواري^(١).

وبمقدار ما كانت تجربة آدم عليه السلام قاسية على نفسه، فإنها ضرورية له ولأبنائه من بعده، في سبيل سبك الإنسان وتهذيبه، وتعليمه أن الطريق إلى الجنة يمرّ بطاعة الله وعداء الشيطان، وإن إبليس هو العدو اللدود، جذوة شر، وذو لسان من رُطب ويدّ من خشب يلين في قوله ويخبث في فعله، بل أروغ من ثعالة، وأشدّ مكرراً منه، ولما لا؟! وهو الذي تسبب فقدان آدم عليه السلام النعيم وسقاه مرارة الشقاء.

وحتى تعود لآدم عليه السلام قوته في مواجهة الحياة الجديدة الضعبة أمر الله جبرئيل أن يجمعه مع زوجته حواء عليها السلام بخيمة من خيام الجنة، وقد كان آدم عليه السلام معزلاً إياها معتقداً أن الله ما فرق بينهما في مكان الهبوط إلا لأنها لا تحلّ له^(٢).

وأوحى الله إلى جبرئيل بعدها إلى أن ينحي آدم وحواء عن الخيمة ليكون ذلك المكان مواضع لقواعد البيت، فرفعت الخيمة إلى السماء، وقال الله لآدم: «يا آدم إن السبعين ألف ملك الذين أنزلهم الله

(١) المصدر السابق، ص ١٨٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٤.

إلى الأرض ليؤنسوك ويطوفون حول أركان البيت والخيمة سألوا الله أن يبنّي لهم مكان الخيمة بيتاً على موضع التربة المباركة حيال البيت المعمور فيطوفون حوله كما كانوا يطوفون في السماء حول البيت المعمور»^(١).

وفي سبيل إعادة السكينة لقلب آدم ﷺ وتطيب نفسه أرسل الله إليه جبرئيل فقال له: «السلام عليك يا آدم الصابر على بليته التائب عن خطيئته إن الله تبارك وتعالى بعثني إليك لأعلمك المناسك التي يريد أن يتوب عليك بها»^(٢) فقال آدم: وكيف أتوب؟

فأنزل الله عليه قبة من نور في موضع البيت فسطع نورها في جبال مكة فهو الحرم، فأمر الله جبرئيل أن يضع عليه الأعلام، قال: قم يا آدم فخرج به يوم التروية وأمره أن يغتسل ويحرم.. فلما كان يوم الثامن من ذي الحجة أخرجه جبرئيل ﷺ إلى منى فبات بها.

فلما أصبح أخرجه إلى عرفات وقد كان علّمه حين أخرجه من مكة الإحرام وأمره بالتلبية فلما زالت الشمس يوم عرفة قطع التلبية وأمره أن يغتسل فلما صلى العصر وقّفه بعرفات وعلّمه الكلمات التي تلقى بها ربه وهو «سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي إنك أنت خير الغافرين سبحانك اللهم وبحمدك لا إله

(١) المصدر السابق، ص ١٨٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٧.

إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي إنك أنت التواب الرحيم».

فبقي إلى أن غابت الشمس رافعاً يديه إلى السماء يتضرع ويبكي إلى الله، فلما غابت الشمس رده إلى المشعر فبات بها، فلما أصبح قام على المشعر الحرام فدعا الله تعالى بكلمات وتاب عليه ثم أفضى إلى منى وأمره جبرئيل أن يحلق الشعر الذي عليه فحلقه ثم رده إلى مكة.

فأتى به عند الجمرة الأولى فعرض إبليس له فقال: يا آدم أين تريد؟ فأمره جبرئيل أن يرميه بسبع حصيات وأن يكبر مع كل حصاة تكبيرة ففعل ثم ذهب فعرض له إبليس عند الجمرة الثانية فأمره أن يرميه بسبع حصيات فرمى وكبر مع كل حصاة تكبيرة، ثم مضى به فعرض له إبليس عند الجمرة الثالثة وأمره أن يرميه بسبع حصيات فرمى وكبر مع كل حصاة تكبيرة فذهب إبليس وقال له جبرئيل عليه السلام: إنك لن تراه بعد هذا أبداً.

فانطلق به إلى البيت الحرام وأمره أن يطوف به سبع مرات ففعل، فقال له: إن الله قد قبل توبتك وحلت لك زوجتك. فلما قضى آدم حجه لقيته الملائكة بالأبطح قالوا: يا آدم برّ حجك أما إنا قد حججنا قبلك هذا البيت بألفي عام^(١).

وهكذا برّدت غلة رُوع آدم عليه السلام وصفت نفسه، وبقت العبرة لجنس الإنسان وهي أن الله يقبل التوبة ويعفو ويرحم بل ويجتبي، فإن رحمة الله لا ييأس منها من عصاه وخالف أمره، فإن الجواد قد يعثر،

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

وعن أبي عبيدة الحذاء قال: سمعت أبا جعفر يقول: إن الله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته في ليلة ظلماء، فوجدها فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها»^(٢).

(١) سورة الزمر، الآية ٥٣.

(٢) مرآة العقول، ج ١١، ص ٣٠٣.

آدم ﷺ (الزوج - الأب)

بدأت حياة آدم ﷺ العائلية برباط مقدس مع حواء ﷺ عقد في الجنة، في جو طاهر يؤكد أن آدم ﷺ رجل مرزوق محظوظ، فالله تعالى لما خلق آدم من تراب ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته غلب على آدم النوم وفي حال نومه خلق الله تعالى حواء كما خلق آدم من طين من جنس طينة آدم أو من فاضل طينته، وجعلها إلى جانبه..

فلما أوجد الله فيها الروح أخذت تتحرك فانتبه آدم لتحركها فنوديت أن تنحي عنه، فلما نظر آدم إليها نظر إلى خلق حسن يشبه صورته غير أنها أنثى فكلّمها فتكلّمت بلغته فقال لها: من أنت؟ فقال: خلق خلّقي الله كما ترى.

فخاطب آدم ربه وقال: يا رب من هذا الخلق الذي أنسني قربه والنظر إليه، فقال الله تعالى: هذه أمتي حواء، فتحب أن تكون معك فتؤنسك وتحدثك وتأتمر بأمرك؟

فقال آدم: نعم يا رب ولك بذلك الشكر والحمد ما بقيت، فقال

الله تعالى: اخطبها مني لنفسك فإنها أمتي وأنها الصالحة للشهوة أيضاً وقد ألقى الله عليه الشهوة، فقال: يا رب فإني أخطبها منك لنفسي فما رضاك بذلك؟

فقال سبحانه: رضائي أن تعلمها معالم ديني، فقال آدم: لك ذلك علي يا رب إن شئت، فقال سبحانه: لقد شئت وقد زوجتك إياها على ما شرطت عليك، فضمها إليك. فقبل آدم بذلك ثم قال لها: اقبلي إلي، فقالت: بل أنت فأقبل إلي، فأمر الله عز وجل آدم أن يقوم إليها فقام إليها^(١).

وفي الأرض ألقى آدم عليه السلام مراسمه وأقام عند البيت بأمر من الله فكان يخرج مع زوجته خارج الحرم متى أراد، عن علي بن الحسين عليه السلام: «وكان آدم يعظم البيت وما حوله من حرمة البيت وكان إذا أراد أن يغشى حواء خرج من الحرم وأخرجها معه فإذا جاز الحرم غشيها في الحل ثم يغتسلان إعظاماً منه للحرم ثم يرجع إلى فناء البيت»^(٢).

فحياة آدم عليه السلام في الجنة قد هذّبتة، كأنه ملك في مَسْلَاحِ إنسان، ووضعت حواء عليها السلام ذات بطنها فولدت قابيل الذي أصبح ممن يرتضعون الدنيا ويذمونها، ومن أولئك الذين هم غلاظ الرقاب أخلاف عتاة وأردفته بابنها هابيل الذي ارتسم مراسم والده.

وكانت بدء سلالة الإنسان بزواج قابيل وهابيل من امرأتين

(١) الأنبياء حياتهم قصصهم، ص ٤٥.

(٢) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٢٥.

أحدهما أنسية من أصل جني والأخرى حوراء نزلت من الجنة... فلما أدرك قابيل ما يدرك الرجل أظهر الله عز وجل جنيه من ولد الجان يقال لها جهانه في صورة إنسية، فلما رآها قابيل ومقها فأوحى الله إلى آدم أن زوج جهانه من قابيل فزوجها من قابيل ثم ولد لآدم هابيل فلما أدرك هابيل ما يدرك الرجل اهبط الله إلى آدم حوراء واسمها ترك الحوراء، فلما رآها هابيل ومقها فأوحى الله إلى آدم أن زوّج تركاً من هابيل ففعل»^(١).

وعن بريد العجلي عن أبي جعفر عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى أنزل على آدم حوراء من الجنة فزوجها أحد ابنيه، وتزوج الآخر ابنة الجان، فما كان في الناس من جمال كثير أو حسن خلق فهو من الحوراء، وما كان منهم من سوء خلق فهو من ابنة الجان^(٢).

وما قيل عن زواج قابيل وهابيل من أختين لهما غير مقبول، وقد أنكر أهل البيت عليه السلام ذلك أشد الإنكار عن زرارة قال سئل أبو عبد الله عليه السلام كيف بدأ النسل من ذرية آدم عليه السلام فإن عندنا أناساً يقولون: إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى آدم عليه السلام: أن يزوج بناته من بنيه، وأن هذه الخلق كلهم أصله من الإخوة والأخوات: قال أبو عبد الله عليه السلام: سبحان الله، وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، يقول من يقول هذا: إن الله عز وجل جعل أصل صفوة خلقه وأجائه وأنبيائه ورسله والمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات من حرام، ولم يكن له من القدرة ما

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(٢) من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، ج ٣، ص ٣٨٢.

يخلقهم من الحلال، وقد أخذ ميثاقهم على الحلال والطهر الطيب^(١).

وفي رواية أخرى يقول أبو عبدالله الصادق عليه السلام: «ويح هؤلاء أين هم عما لم يختلف فيه فقهاء أهل الحجاز ولا فقهاء أهل العراق إن الله عز وجل أمر القلم فجرى على اللوح المحفوظ بما هو كائن إلى يوم القيامة قبل خلق آدم بألفي عام وإن كتب الله كلها فيما جرى فيه القلم في كلها تحريم الأخوات على الأخوة مع ما حرم وهذا نحن قد نرى منها هذه الكتب الأربعة المشهورة في هذا العالم: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، أنزلها الله عن اللوح المحفوظ عن رسله صلوات الله عليهم أجمعين، منها التوراة على موسى عليه السلام والزبور على داود عليه السلام والإنجيل على عيسى عليه السلام والقرآن على محمد عليه السلام وعلى النبيين عليهم السلام، وليس فيها تحليل شيء من ذلك، حقا أقول ما أراد من يقول هذا وشبهه إلا تقوية حجج المجوس فما لهم قاتلهم الله»^(٢).

جريمة تهز قلب آدم

عاش آدم عليه السلام مع عائلته حياة هادئة هانئة، حتى هزت جريمة قتل قابيل لأخيه هابيل كيان العائلة، وهي أول جريمة تحدث على كوكب الأرض من سلالة آدم عليه السلام، وهي في مجموعها تعطي صورة عن أهداف الجريمة وطبيعة دوافع المجرم في الحياة البشرية منذ نشوء الكيان البشري حتى حياتنا المعاصرة.

(١) بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١١ - ص ٢٢٠.

(٢) علل الشرائع - الشيخ الصدوق - ج ١ - ص ١٩.

«وقد وردت قصة ابني آدم ﷺ في القرآن والسنة من أجل إعطاء موقف صارم اتجاه الجرائم من خلال ما تخلقه في نفس القارئ أو السامع من تأثير نفسي ضد الجريمة والمجرم، وتعاطف روعي مع الضحية مما يترك أثاره على السلوك الأناني العام فيما يريد أن يقدم عليه من عمل أو يحكم عليه من أعمال الآخرين»^(١).

وقد بدأت فصول الجريمة حينما أوحى الله إلى آدم: سبق علمي أن لا أترك الأرض من عالم يعرف به ديني وأن أخرج ذلك من ذريتك، فانظر إلى اسمي الأعظم وإلى ميراث النبوة وما علمتك من الأسماء كلها وما يحتاج إليه الخلق من الأثرة عني فأدفعه إلى هابيل.

فلما علم قابيل ذلك غضب، فأتى آدم فقال له: «يا أبه أأست أكبر من أخي وأحق بما فعلت به؟».

أراد آدم ﷺ أن يرأب ويصلح قلب ولده قابيل فقال: «يا بني إنما الأمر بيد الله يؤتيه من يشاء، وإن كنت أكبر ولدي فإن الله خصه بما لم يزل له أهلاً»^(٢).

ومن قصة القاتل والقتيل نعرف أن الإنسان لا يرغب في البقاء فحسب، بل يرغب في كل ما يغني حياته ويزيدها قوة وجمالا، فالإنسان يتنافس ويتسابق مع أنه يعلم حق العلم أنه فان، كل ذلك لأن الإنسان يريد الحياة ويريد كل ما يقويها، ويبقى الاختلاف بين الناس

(١) من وحي القرآن، ج ٨، ص ٨٦.

(٢) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٢٧.

في غاياتهم، وأساليب الوصول لكل الغايات.

رأى آدم ﷺ أن قابيل أصبح سقيم الصدر على أخيه، فأراد أن يقتلع ذلك الحقد، ففهماً إياه أن القضية مرتبطة بالله وليس به، وعليه فلا مجال للطمع فإنه طمع في غير مطمع، فقال له: فإن كنت تعلم أنه خلاف ما قلت ولم تصدقني فقرباً قرباناً فإن كان قبل قربانه فهو أولى بالفضل من صاحبه^(١).

ولما قربا القربان، قرب أحدهما أسمن كبش كان في شأنه وقرب الآخر حنشاً من سنبل، فتقبل من صاحب الكبش وهو هابيل ولم يتقبل من الآخر، وكانت علامة قبول القربان احترافه كما ورد ذلك في بعض الروايات.

يقول السيد محمد حسين الطباطبائي في ميزانه عن قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا قُتْلَكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾: سياق الكلام يدل على أنهما علما بتقبل قربان أحدهما وعدم تقبله من الآخر، وأما بأنهما من أين علما ذلك؟ أو وبأي طريق استدلوا عليه فالآية ساكتة عن ذلك.

غير أنه ذكر في موضع من كلامه تعالى أنه كان من المعهود عند الأمم السابقة أو عند بني إسرائيل خاصة تقبل القربان المتقرب به بأكل النار إياه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرُسُولِهِ حَتَّى يَأْتِيََنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢).

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٨٣.

والقربان معروف عند أهل الكتاب إلى هذا اليوم فمن الممكن أن يكون التقبل للقربان في هذه القصة أيضاً على ذلك النحو، وخاصة بالنظر إلى إلقاء القصة إلى أهل الكتاب المعتقدين لذلك^(١).

لقد أظهر القربان الفرق بين الأخوين، حيث سفِه قابيل الحق وجهله، فأصبح أسود الكبد، يكمن العداء لأخيه السوِّغ الذي وُلد على أثره، وعزم على التخلص من أخيه.

وقيل أن إبليس وسوس له قتل أخيه، عن أبي عبد الله: «... فقال إبليس لقابيل: إنه يكون لهذا عقب يفتخرون على عقبك بأن قبل قربان أبيهم، فاقتله حتى لا يكون له عقب»^(٢). بل وإن إبليس هو الذي علّم قابيل كيف يقتل أخاه قائلاً له: ضع رأسه بين حجرين ثم اشدخه^(٣).

وفي القرآن حُمِلت المسؤولية كاملة على قابيل ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ وليس هناك تعارض بين دور إبليس، وتحمل قابيل مسؤولية ما حدث، وذلك لأن قابيل يمتلك الإرادة بحيث يمكن أن يقول لإبليس نعم أو لا. وهكذا أسفاه إبليس وحمله على الطيش، فترصد أخاه وتتبع خلواته حتى خلا به متنحياً عن آدم فوثب عليه فقتله^(٤).

وقد عرض القرآن الكريم الحادثة بدءاً من نية قابيل قتل أخيه، مروراً بالإرادة الجازمة والحكم النهائي في نفسه بالتخلص من أخيه،

(١) تفسير الميزان، ج ٥، ص ٣٠٠.

(٢) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٤٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٣٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٤١.

حتى التنفيذ، وقد عرض القرآن ذلك بصورة حوار.

فحين بيّت قابيل نيته، وسنحت له الفرصة أظهر نيته لأخيه، وقد أرغى وأزبد، وضخ غضبا مهدداً: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وقوبل هذا التهديد بروح هادئة بعيدة عن الانفعال ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِيدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾.

وقد يقول قائل لما هذا الموقف الضعيف من هابيل، حيث لم يقابل تهديد أخيه بالدفاع عن نفسه بل سلم له أمر نفسه وطاوعه في إرادة قتله؟ والجواب، أن التهديد ليس مسوغاً للمبادرة بالجريمة، وإذا استطاع الإنسان أن يقاوم إغراء التهديد فلا يقتل الناس ولا يشن الحروب الابتدائية ضد الآخرين، لأن نصف الحروب تصبح بلا مبرر وبلا دافع إليها^(١).

هذا بالإضافة «أنه لم يقل إني لا أدافع عن نفسي وأدعك وما تريد مني وإنما قال لست أريد قتلك، ولم يذكر في الآية أنه قتل ولم يدافع عن نفسه على علم منه بالأمر فلعله قتله غيلة وهو يدافع أو يتحرز»^(٢).

لقد كان موقف هابيل مستحوذاً على الاهتمام وقد ذخر لنفسه حديثاً حسناً على مرّ الدهور، وأما قابيل فإنه أصبح أحدوثة التي يلعنها اللاعنون ولا يُشم من موقفه سوى شيء واحد بغيض وهو دافع الحسد الذي هو غريزة الحرص على التفوق والاستعلاء.

(١) من هدى القرآن، ج ٢، ص ٣٥٤.

(٢) تفسير الميزان، ج ٥، ص ٣٠٣.

وأما موقف هابيل فيعبر عن الهدوء الذي يمنع الإنسان من ارتكاب حماقة «أنه موقف اللاعنف أو إرادة السلام الذي يعبر عن نفسه بهذه البساطة الموحية.. فهو لا يواجه موقفه التهديدي بموقف تهديدي مضاف لأنه لا يؤمن بالمبدأ الذي يدفع الإنسان إلى قتل أخيه الإنسان قريباً كان أو بعيداً لمجرد نزوة عارضة أو مزاج انفعالي يؤمن بالمبدأ الذي يعطي للمواقف الحادة الفرصة للتراجع والمرونة بفضل هدوء الفكر ورحابة الصدر ليسيطر على السلبيات التي تفجر الموقف وتخلق المشكلة»^(١).

وحينما أشخب قابيل أوراد أخيه دماً حيث سفع بناصيته فجذبه بشدة، والبقية لا تذكر، اكتشف أنه أراد صفة (وصي قبل أن يتهيأ لها) فالطريق إلى الكرامة واستحقاق موثيق الأنبياء لا يمر عبر خفة وحماقة أو ارتكاب جريمة.

لقد شعر بارتباك شديد، لم يعرف كيف يواري أخاه حتى جاء غرابان فأقبلا يتضاربان حتى اقتتلا فقتل أحدهما صاحبه ثم حفر الذي بقى الأرض بمخالبه، ودفع فيه صاحبه فقال قابيل في نفسه: ﴿وَيْلَنَا أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي﴾.

ثم رجع قابيل إلى أبيه فلم يرَ معه هابيل، فأحسّ وكأن أمرأ قد دهمه وأن ساعة سوعاء شديدة قد أقبلت، وهو يعرف ما في قابيل من طيش، فأخذ في ذرو من الحديث وعرض ولم يصرح قائلاً: أين تركت

ابني؟ قال قابيل: أرسلتني عليه راعياً!

فقال آدم: انطلق معي إلى مكان القربان... فلما بلغ مكان القربان استبان قتله، فلعن الأرض التي قبلت دم هابيل وأمر آدم أن يلعن قابيل ونُودي قابيل من السماء لعنت، كما قتلت أخاك^(١).

فانصرف آدم باكياً هابيل أربعين يوماً، حتى سقاه الله سُلواناً وطيب نفسه، فأوحى الله إليه: «إني واهب لك ذكراً يكون خلفاً من هابيل» فولدت حواء غلاماً زكياً مباركاً فلما كان يوم السابع أوحى الله إليه: يا آدم إن هذا الغلام هبة مني لك فسمه هبة الله، فسماه آدم هبة الله^(٢).

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٣٠.

(٢) المصدر السابق.

آدم ﷺ في جوار الله

آدم ﷺ على فراش المرض، يتقلب على دفيه، وقد دكّه المرض، فلما رأى دينة الموت عهد عهده، فقال لشيث - هبة الله - : «يا بني إن أجلي قد حضر وأنا مريض وإن ربي قد أنزل من سلطانه ما قد ترى وقد عهد إليّ فيما قد عهد أن أجعلك وصي وخازن ما استودعني وهذا كتابه الوصية تحت رأسي وفيه أثر العلم، واسم الله الأكبر فإذا أنا متّ فخذ الصحيفة»^(١).

ثم أردف قائلاً: «يا بني أني اشتفيت ثمرة من ثمار الجنة فاصعد إلى جبل الحديد فانظر من لقيته من الملائكة فاقرأه مني السلام وقل له إن أبي مريض وهو يستهديكم من ثمار الجنة»^(٢).

وشدّ آدم ﷺ حيازيمه للموت ووطن نفسه، حتى دفع الله روحه، حيث هبط ملك الموت فقال آدم: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنني عبد الله وخليفته في أرضه ابتدأني بإحسانه

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٦٣.

(٢) المصدر السابق.

وأسجد لي ملائكته وعلمني الأسماء كلها ثم أسكنني جنته، ولم يكن جعلها لي دار قرار ولا منزل استيطان وإنما خلقتني لأسكن الأرض للذي أراد من التقدير والتدبير»^(١).

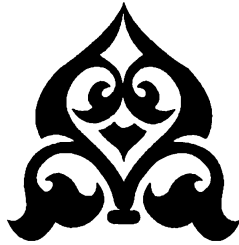
لقد مات آدم عليه السلام وقد ذرّف عمره عن تسعمائة وست وثلاثين سنة، ودفن بمكة^(٢) والمشهور أنه دُفن في الغري بعد الطوفان، وقال المسعودي في إثبات الوصية دُفن بمكة في جبل أبي قبيس، ثم أن نوحاً حمل بعد الطوفان عظامه فدفنه في ظاهر الكوفة.

لقد كان آدم في حياته لا يدالس فلا يظلم، ولا يوالس فلا يخون، حتى مات وهو على تلك الدّمة والطريقة. مات وما به داء سوى داء الأسد.. المرض والحُمّى.. وما به داء الضرائر.. الشر الدائم.. ولا داء الوطن.. الفتنة العمياء.. فقد كان ميت الداء لا يحقق على أحد حتى أسلم الروح إلى بارئها.

١٤١٤/٩/٢٦ هـ

(١) المصدر السابق، ص ٢٦٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٧.



يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ

ذو النون

تمهيد

في سبيل التحول الاجتماعي الشامل نحو الله، لا بد أن يكون هناك من يحدد معالم الطريق ويرسم بوضوح ذلك الهدف، وهذا دور من لهم شرف يُراني الكواكب، أعني الأنبياء، وبعدهم الأوصياء، ثم العلماء الربانيين، وبعد ذلك تتوحد الغايات، وتجتمع الإرادات في السير نحو ذلك الهدف: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾^(١).

ومثل هذا التحول يتطلب تغيير النفوس من الداخل، ومن ثم يترتب عليه التغيير الخارجي للأوضاع الاجتماعية، وهنا محط صعوبة ذلك التحول، إذ كيف تنطلق تلك الإرادات المتباينة والأخلاق المتنافرة فهذا يسحب ذيله متبخترا، وذاك سادرا في غيه، وآخر يسرح في أعراض الناس.

بل كيف يلتقي من تساقوا كؤوس المنية، فكان بينهم سفك دماء،

(١) سورة الانشقاق، الآية ٦.

حتى أصبحوا سُود الأكباد، يعادون بعضهم بعضاً، ولذا اعتبر بعضهم أن مثل هذا التحول مما ليس إليه سبيل والحق غير ذلك.

وفي قصة يونس عليه السلام مع قومه برهان في إمكان تحقق التحول، ولعل أهم عبرة في هذه القصة إمكانية حدوث مثل ذلك التحول الشامل، الذي عمل يونس عليه السلام على إحداثه فشمر عن ساعديه واجتهد دونما جدوى حتى قرر إخلاء الساحة، فكان العالم روييل يعمل لوحده ويحاول بإلحاح العودة بالناس نحو الله حتى استطاع أن يتشلهم من المستنقع الآسن ويصلح أمرهم.

أما كيف يتحقق ذلك التحول؟ فالحق إن لكل مجتمع وضعه الخاص وظرفه المختلف عن غيره، فليس بالضرورة تجربة قوم يونس عليه السلام تنطبق على مجتمع آخر، ولكن بدون شك تبقى العبرة في إمكانية حدوث التحول، وكما يقولون: عند الصباح يحمد القوم السُرى، فتحمل المشقة في سبيل ذلك التحول نحو الله، محصله أن تحمد العاقبة والحمد لله.

الملاحم العامة... النبي - القرية

النبي يونس عليه السلام:

اتفق المؤرخون أن يونس عليه السلام يعرف بـ (يونس بن متى) دون ذكر شجرة نسبه، ويسمى عند أهل الكتاب: يونان بن أمتاي) وهو من بني إسرائيل^(١). وأبوه (متى) رجل صالح، طاهر الثوب، رحب الجنب، الزهد من إجريّاه وطبيعته.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن يونان، إنما كان نبياً قومياً من أنبياء بني إسرائيل على أيام ملك إسرائيل (يربعام الثاني) (٧٦٥-٧٥٩ ق.م) وأنه أرسل إلى أهل نينوى في الفترة (٧٦٥-٧٥٩ ق.م) في أخريات أيام العاهل الآشوري (أشوردان الثالث) (٧٧١-٧٥٤ ق.م)^(٢).

والعهد القديم (التوراة) لم يقدم معلومات وافية، وكل ما جاء أنه النبي يونان بن أمتاي من (جت حافر) على مقربة من الناصرة

(١) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، محمد مهران، ج ٤، ص ١٨٨.

(٢) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج ٤.

بأرض الجليل^(١).

وقد بعثه الله إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة، وأقام فيهم يدعوهم إلى الإيمان بالله والتصديق به ثلاثاً وثلاثين سنة^(٢) لكنهم جعلوا كلامه دُبر آذانهم، ولم يعبؤا به. قيل يوجد في بلد اسمه (حَلحول) قرب مدينة الخليل بفلسطين، قبر هو قبر يونس عليه السلام. وبمكان غير بعيد عنه قبر يقال أنه قبر متى.

القرية:

بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل نينوى (بكسر أوله) وما يؤيد هذا ما جاء عن رسول الله ﷺ وقت وجوده في الطائف، حيث جاء إليه غلام يدعى عداس، معه عنب من أهل نينوى، فسأله رسول الله: من أي أرض أنت؟ قال: أنا من أهل نينوى، فقال: من مدينة الرجل الصالح يونس بن متى. فقال له عداس: «وما يدريك من يونس بن متى؟ فقال له رسول الله: أنا رسول الله، والله تعالى أخبرني خبر يونس بن متى. فلما أخبره بما أوصى الله إليه من شأن يونس خرّ عداس ساجدا وجعل يقبل قدميه»^(٣).

ونينوى قرية بأرض الموصل، وليست نينوى كربلاء التي تقع ناحية الكوفة، وقتل فيها الحسين عليه السلام^(٤) ونينوى هي عاصمة دولة

(١) المصدر السابق.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٤٠٥.

(٣) بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٦.

(٤) معجم البلدان، ج ٥.

أشور، بلغ حصيص سكانها زمن دعوة يونس عليه السلام مائة ألف أو يزيدون ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِثَّةٍ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾^(١).

وتقع نينوى على الضفة الشرقية لنهر دجلة، على فم رافد صغير يدعى (الخسر) على مبعدة ٢٥ ميلا من التقاء الدجلة بالزاب قبالة الموصل، وكان العبرانيون يعممون اسم (نينوى) لشمل كل المنطقة حول التقاء الزاب بالدجلة^(٢).

والجدير بالذكر أن الآيات التي ذكرت قصة يونس عليه السلام لم تذكر مكانهم، وإن كان المفهوم منها وبالذات قصة يونس عليه السلام في السفينة، إنهم كانوا في بقعة قريبة من البحر.

وقد بسطت دولة آشور نفوذها على معظم البلاد، وكانت من أغنى وأعظم المدن الشرقية في ذلك الزمن^(٣)، والذي يؤيد هذا أن سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) فاتح كرمكيش والسامرة في السنة السابعة لملكه، قد لبس لقبائل العرب جلد النمر، فاضع أقواماً من جملتهم قبائل ثمود ونكل بهم تنكيلاً.

وحوالي سنة ٦٨٨ ق.م، أخضع سنحاريب (ادمو قلعة بلاد العرب) وجاس خلال الديار، وحمل آلهتها إلى نينوى، وأسر ملكتها التي كانت في الوقت نفسه كاهنة الآلهة، حيث تحالفت مع البابليين

(١) سورة الصافات، الآية ١٤٧.

(٢) دراسات تاريخية من القرآن، ج ٤، ص ١٧٧.

(٣) مع الأنبياء في القرآن الكريم، عفيف طبّارة، ص ٣٠٦.

الخارجين على سلطة آشور^(١).

وفي سجلات الآشوريين إشارات كثيرة إلى زعماء العرب، يقبلون أرجل ملوك نينوى، رافعين الهدايا فيها الذهب والحجارة الكريمة، وأنواع الكحل، واللبن، والجمال والحمر.

والواقع أن الأنبياء متوافرة عن زهاء تسع حملات، جردها سرجون الثاني، وسنحاريب، واسرحدون، وآشوربانيال، لمعاقبة قبائل البدو التي لا تقهر بسبب مضايقتهم للممتلكات الآشورية في نواحي الشام، واعتراضهم طرق القوافل التجارية وتلقيهم العون والمساعدة من مصر وبابل عدوتي آشور^(٢)، وليست في سجلاتهم التي بين أيدينا إلا بلاغات رسمية قصد بها تسكين الخواطر في مناطق نفوذهم^(٣).

وأخيراً نقول قبل طي هذا الجانب من البحث، أن أهل نينوى تمتعوا في مدينتهم مدة إقامة يونس عليه السلام فيهم وبعده بدنيا دانية فيها أمرعت بلادهم وأخصبت، متدثرين بالإيمان، متنعمين بعيش رقيق الحواشي، ثم بعد ذلك أفسدوا وضلوا، فسلط الله عليهم من دمر لهم مدينتهم فكانت أحاديث يرويها المؤرخون^(٤).

(١) تاريخ العرب، د فليب حتى، ص ٦٦-٦٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) النبوة والأنبياء، الصابوني، ص ٣١٧.

يونس عليه السلام يحاور القرية

دعا يونس عليه السلام قومه فكذبوه، بقي يذكرهم ويعظهم، ولكنه لم يلق منهم إلا آذاناً صُمّاً، وقلوباً غلفاً، وكم جرّ حوه بأنياب، وأضر اس، فشتموه، وعابوه ولم يجبه أحد، خلا رجلين، عالم (روبيل) وكان قديم الصحبة ليونس عليه السلام، من قبل أن يبعثه الله بالنبوة، وهو من أهل بيت علم ونبوة وحكمة، وعابد (مليخا)، وكان رجلاً مستضعفاً عابداً زاهداً يعمل خطاباً^(١).

وأسباب تكذيب أهل نينوى ليونس عليه السلام هي نفس أسباب تكذيب الأقوام السالفة لأنبيائهم هذا النعل بالنعل «حتى أصبح تكذيب الرسل سنة اجتماعية، فليس من السهل أن يستيقظ مجتمع مترسل في الفساد، سادر في الميوعة واللامبالاة مرة واحدة، ويعود إلى رشده الأولي، ومع ذلك فليس قدراً مقضياً عليهم بل سنة اجتماعية.

والفرق بين القدر والسنة أن القدر كطلوع الشمس من مشرقها

(١) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٩٢.

في وقتها لا يخضع أبداً لإرادة البشر، بينما السنة قد تتقدم أو تتأخر أو حتى لا تقع إذا أراد الإنسان، فجحود الظالمين وكفر المكذبين بآيات الله ليس قدراً، فمن الممكن عقلاً أن يدور المرء مائة وثمانين درجة باتجاه الصلاح، كما فعل قوم يونس، ولكن لا يقع ذلك عادة بسبب تكبر الفاسقين، وتعاليتهم عن التوبة إلا بعد فوات الأوان، وقد سميت سورة باسم يونس عليه السلام لأهمية التحول الاجتماعي عند قومه^(١).

هذا التحول الذي بدأ بشكوى يونس عليه السلام إلى ربه بعدما مضى عليه حرس من الدهر مع قومه، وكان فيما شكّا: «يا رب إنك بعثني إلى قومي، ولي ثلاثون سنة، وأخوفهم عذابك ونقمك ثلاثاً وثلاثين سنة، فكذبوني ولم يؤمنوا بي، وجحدوا بنبوتي، واستخفوا برسالاتي، وقد تواعدوني، وخفت أن يقتلونني، فانزل عليهم عذاب فإنهم لا يؤمنون.

فأوحى الله إلى يونس «إن فيهم الحمل والجنين، والطفل، والشيخ الكبير، والمرأة الضعيفة، والمستضعف المهين، وأنا الحكم العدل سبقت رحمتي غضبي، لا أعذب الصغار بذنوب الكبار من قومك، وهم يا يونس عبادي وخلقي وبريتي في بلادي، وفي عيلتي أحب أن أتأناهم وأرفق بهم».

فقال يونس: «يا رب إنما غضبت عليهم فيك، وإنما دعوت عليهم حين عصوك فوعزتك لا أتعطف عليهم برأفة أبداً، ولا أنظر إليهم بنصيحة شفيق بعد كفرهم وتكذيبهم إياي، وجحدهم بنبوتي،

فانزل عليهم عذابك فإنهم لا يؤمنون أبداً»^(١).

وبموقف يونس عليه السلام الصارم هذا قيل عنه أنه قليل الصبر على قومه والمدارة لهم قياساً مع غيره من الأنبياء «حيث إن درجات الملكات والمواهب الكمالية تتفاضل، والأنبياء والرسل وأوصيائهم والمؤمنون أيضاً كذلك، فهم يتفاضلون في الصفات الحميدة، كالصبر، وسعة الصدر، وشدة التوكل على الله، كاختلافهم في صورهم، وأشكالهم وكاختلافهم في أعمارهم، وأرزاقهم، وجاههم، وولدهم، وأفهامهم، وعقولهم، إلى غير ذلك، بالوجدان والعيان. وقد خالف بينهم ربهم وخالفهم لحكم ومصالح لا يدركها غيره، فإنه ليس ليونس عليه السلام ما لموسى بن عمران وأيوب، المثلّى عليه السلام من الصبر، ولا له ما لإبراهيم خليل الرحمن من شدة التوكل على الله تعالى، ولا لأحد من النبيين ما لحبيب الله محمد بن عبد الله ﷺ من جميع المزايا والخصال الحميدة»^(٢).

وليس من الحق أن نشكك في كفاءته وقدرته، وإنه عجز عن حمل ثقل أوقار النبوة، فتعجل بالدعاء على قومه، وهو محقوق بأن يتصف بالتأني، خصوصاً وهو نبي من دوحة الإيمان، أقدر من غيره في تحليله لأوضاع مجتمعه، وقد عاملهم مداهرة ودهاراً، فلم ير لعنصر الزمن تأثيراً في تغيير موقفهم، فسواء طال أم قصر، فهم مصرون على ما هم عليه، فما لهم محصول ولا معقول.

(١) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٩٣.

(٢) الأنبياء وحياتهم - قصصهم، ص ٤٥٧.

ولعل هذه القناعة لها مبرراتها، فخلال أكثر من ثلاثين عاماً من الدعوة والعمل المتواصل، كانت الحصيلة شخصين، هما في الأساس يمتلكان مؤهلات خاصة، فروبيل العالم حفيد بيت نبوة وحكمة، والآخر مليخا زاهد عابد، وحينما نقارن بين هذه الحصيلة، وهدف الدعوة - تحول اجتماعي نحو الله - نرى فرقاً شاسعاً.

وهناك عاملان ساهما في تعزيز الموقف السلبي عند أهل نينوى، الأول: العامل الاقتصادي، فنينوى أرض خصبة، وذات إمكانات هائلة، مما أصبغ على أهلها ترفاً اقتصادياً، فاندفعوا باتجاه ارتكاب الموبقات والمعاصي والانغماس في الحياة المادية، واستدر المال في قلوبهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(١).

وكان الجانب المادي مقدرأله أن يصبح عنصر قوة في الدعوة، حيث القوة المادية مع الإيمان كفيلة بصنع انبعاث حضاري، ولذا نجد معظم الأنبياء عاشوا في بيئة ذات إمكانات مادية عظيمة.

والعامل الآخر: الثقافة الجاهلية الحاكمة، من عبادة الأصنام وما تصنعه في ذهن الإنسان من تحطيم لشخصيته الفكرية، وتحجيرها، والسحر الذي كان الوجهة العلمية للمجتمع، حتى قيل أن رجلين من نينوى هما علما سحرة فرعون الذين واجهوا موسى عليه السلام.

إن عبادة الأصنام، وعقائد أهل آشور حولها، حولت الإنسان إلى

وحش كاسر، لا مجال معه للنقاش والحوار، فما على الآشوري إلا تقديم القرابين فيصبح في حلّ بعد ذلك من أن يفقأ عين عدوه المهزوم، ويقطع أيدي الأسرى وأرجلهم، ويشوي ما بقي من أجسامهم وهم أحياء، دون أن يؤذي بذلك آلهته. ويعزز هذا المنحى في شخصية الآشوري، أن أصحاب الحكم كيفوا العقائد الآشورية بحيث يصبح ملائماً للميول الحربية.

وقد ساهم في تحجير عقول هؤلاء عقائدهم الخاصة بالموت، حيث يؤمنون بأن الناس بعد موتهم يذهبون كلهم، القديس والمذنب إلى مكان مظلم في جوف الأرض للعقاب فأصبح الآشوري لا يفكر لنفسه بإقامة مأوى يمضي فيه حياته الثانية هائناً سعيداً. بل ليس مهماً عنده أن يعمل خيراً وصالحاً، ما دام أنه ستقيد يديه ورجليه أبد الدهر، عقاباً في كل الأحوال، في الدنيا الثانية»^(١).

إجماع على التوبة

اجتمع النبي يونس عليه السلام مع صاحبيه، العالم، روبيل والعابد مليخا، وقد ثنى صدره على أمر عظيم، وكأن العابد عرف ما في قلب النبي، فأشار عليه بالدعاء على القوم، فأسرع العالم ينهائهم ويقول: «لا تدع عليهم، فإن الله يستجيب لك، ولا يحب هلاك عباده»^(١).

ومن أجل الله وجراؤه، تباين رأي العالم والعابد، فالعابد ظهر فيه التأثر والغضب لله، مما أضعف فيه روح العاطفة على قومه، تماماً كما يؤثر الخوف أو الخجل في الطالب فينسيه درسه الذي بذل في سبيل حفظه جهداً عظيماً، بل وكم مرة ينسى المرء أسماء أصدقائه، أو تاريخ ولادتهم في مرحلة الغضب والهيجان، أما العالم فكانت تستحوذ عليه فكرة إمكانية إيمان قومه، فكان يرى ضرورة إعطائهم فرصة، وهذه الفكرة جعلت مشاعره في اتجاه قومه.

وبكلمة اعتقاده وجه مشاعره، «حيث يؤثر الفكر في توليد

العاطفة، كما إذا اعتقد المرء أن في الصدقة قربة إلى الله، ازداد ميله إلى إعطائها، ولكنه إذا اعتقد أن الصدقة تضر الفقير، وصاحب المال، والمجتمع البشري، ضعف ميله إلى التصديق على الفقراء، فالاعتقاد يؤثر في العاطفة فيقويها أو يضعفها»^(١).

فعل يونس عليه السلام ما أراد، فدعا على قومه، فأوحى الله إليه: يأتيهم العذاب في سنة كذا وكذا، وفي شهر كذا وكذا، وفي يوم كذا^(٢) أخبر يونس عليه السلام روبيل بما أوحى الله إليه من نزول العذاب على قومه في شوال يوم الأربعاء، وسط الشهر بعد طلوع الشمس فقال له: ما ترى؟ انطلق بنا حتى أعلمهم بذلك، فقال له روبيل: ارجع إلى ربك رجعة نبي حكيم ورسول كريم، وسله أن يصرف عنهم العذاب فإنه غني عن عذابهم، وهو يحب الرفق بعباده، ولعل قومك بعد ما سمعت ورأيت من كفرهم وجحودهم يؤمنون يوماً، فصابرهم وتأنهم».

فأبى يونس أن يقبل وصيته، فانطلق ومعه مليخا من القرية، وتنحيا عنهم غير بعيد، ورجع يونس إلى قومه فأخبرهم أن الله أوحى إليه أن ينزل العذاب عليكم يوم الأربعاء في شوال وسط الشهر بعد طلوع الشمس، فردوا عليه قوله، فكذبوه وأخرجوه من قريتهم إخراجاً عنيفاً^(٣).

وبدأت مرحلة انتظار العذاب، فيونس عليه السلام والعابد خرجا

(١) علم النفس، جميل صليبا، ص ٣١٤.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٨٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٩٤.

وتنحيا عنهم غير بعيد، وأقاما ينتظران العذاب، وحين سمعا صيحة القوم وصراخهم دعا الله يونس عليه السلام بتغليظ العذاب عليهم، أما روبيل في موضعه يسمع صراخهم وعجيجهم ويرى ما نزل وهو يدعو الله بكشف العذاب عنهم^(١).

يا لها من مفارقة! النبي يدعو بتغليظ العذاب، والعالم يدعو برفعه، ولكن هذا التعجب يرتفع حين ندرك أن النبي يونس عليه السلام خرج من القرية دون أن يعلم بالتحويلات الحاصلة هناك، أما روبيل فقد كان بين ظهرانيهم، وعلم بتوبتهم، فعمل كل منهما بعلمه.

بدأت علامات الترقب والخوف عند أهل نينوى، وظهرت ملامح التحول وبشائر الأوبة لله، وكانت بداية التحول حينما أيقن القوم بالعذاب، وهذا اليقين لم يأت من فراغ، بل تبلور هذا اليقين وفق مجموعة من العوامل منها:

١- وجود العالم روبيل بينهم، العالم الشفيق، الخفيف على قلوب قومه. حتى أنست به، حيث دخل عليهم شوال فصرخ روبيل بأعلى صوته في رأس الجبل إلى القوم: «أنا روبيل شفيق عليكم، رحيم بكم، هذا شوال قد دخل عليكم، وقد أخبركم يونس نبيكم ورسول ربكم أن الله أوحى إليه أن العذاب ينزل عليكم في شوال في وسط الشهر يوم الأربعاء بعد طلوع الشمس ولن يخلف الله وعده رسله، فانظروا ما أنتم صانعون».

فأفزعهم كلامه، ووقع في قلوبهم تحقيق العذاب، فأجفلوا نحو روبييل وقالوا له: «ماذا أنت تشير علينا يا روبييل؟ فإنك رجل عالم حكيم لم تنزل، نعرفك بالركة علينا، والرحمة لنا وقد بلغنا ما أشرت به على يونس فينا، فمرنا بأمرك، واشر علينا برأيك»^(١).

٢- ظهور علامات العذاب، عن أبي جعفر قال: «إن يونس لما آذاه قومه دعا الله عليهم فأصبحوا أول يوم ووجوههم مصفرة، وأصبحوا اليوم الثاني ووجوههم مسودة، قال: وكان الله واعداهم أن يأتيهم العذاب، حتى نالوه برماحهم»^(٢).

٣- معرفتهم بيونس عليه السلام، قال الطبرسي رحمته الله: «فأخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث، إن لم يتوبوا فقالوا، إنا لم نجرب عليه كذبا، فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم، فلما كان في جوف الليل، خرج يونس من بين ظهرانيهم، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب»^(٣).

أخذ القوم يتناجون، كيف النجاة من العذاب؟ وهم يشعرون أنهم وقعوا في وادي خربات ومهالك، فخشع القوم وتعاهدوا على التوبة، ولكن كيف وهم مقصوصوا الجناح.

عرف العالم روبييل أنهم درج يديه، فقام قائلاً: «فإني أرى لكم وأشير عليكم أن تنظروا وتعمدوا إذا طلع الفجر يوم الأربعاء في

(١) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٩٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٠٥.

وسط الشهر، أن تعدلوا الأطفال عن الأمهات في أسفل الجبل في طريق الأودية وتقفوا النساء في سفح الجبل، يكون هذا كله قبل طلوع الشمس فإذا رأيتم ريحاً صفراء أقبلت من المشرق، فعجوا الكبير منكم والصغير بالصراخ والبكاء، والتضرع إلى الله، والتوبة إليه والاستغفار له، وارفعوا رؤوسكم إلى السماء، وقولوا ربنا ظلمنا وكذبنا بنبيك، وتبنا إليك من ذنوبنا، وإن لا تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين المعذبين، فأقبل توبتنا وارحمنا يا أرحم الراحمين، ثم لا تملّوا من البكاء، والصراخ والتضرع إلى الله والتوبة إليه حتى تتوارى الشمس بالحجاب أو يكشف الله عنكم العذاب قبل ذلك».

فلما طلع فجر يوم الأربعاء فعل قوم يونس ما أمرهم روبيل به، فلما بزغت الشمس أقبلت ريح صفراء مظلمة مسرعة، لها صرير، وحفيف وهدير، فلما رأوها عجّوا جميعاً بالصراخ والبكاء والتضرع إلى الله، وتابوا إليه واستغفروه، وصرخت الأطفال بأصواتها تطلب أمهاتها، وعجت سخال البهائم تطلب اللبن، وعجت الأنعام تطلب الرعى، فلم يزلوا بذلك.. فلما أن زالت الشمس، وفتحت أبواب السماء، وسكن غضب الرب تعالى، رحمهم الرحمن، فاستجاب دعاءهم، وقبل توبتهم، وأقالهم عثرتهم^(١).

وقد حقق قوم يونس دعائم أساسية في التوبة، وهي الاعتراف بالذنب، وإعلان الاعتراف بنبوة يونس ع، والخضوع لإرادة الله في الأرض، وترادوا المظالم، قال ابن مسعود: «بلغ من توبة أهل نينوى،

أن ترادوا المظالم بينهم حتى أن كان الرجل يأتي إلى الحجر، وقد وضع عليه أساس بنيانه فيقلعه ويردّه»^(١).

وقد أتقنوا أسلوب إعلان التوبة، مما جعلها مؤثرة، مما ألهب مشاعر التوبة في تلك المجاميع، وكما يقولون: «إذا قرح الجنان بكت العينان» حيث فرقوا بين النساء وأولادهن، والبقر وأولادها، ولبسوا المسوح والصوف، ووضعوا الحبال في أعناقهم، والرماد على رؤوسهم، وضجوا ضجة واحدة إلى ربهم، وقالوا آمنا بآله يونس»^(٢).

وكان في اختيار الوقت ميزة، فكان قبل طلوع الشمس، وقد اهتم القرآن الكريم بهذا الوقت اهتماماً ملحوظاً ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾^(٤).

وقد يقول قائل، ولما كل ذلك؟ ألا تكفي التوبة في القلوب، من دون مشاهد قاسية ومظاهر محزنة؟ الجواب: إن التوبة الجماعية تحول اجتماعي وتلك المظاهر والأساليب ضرورية لنفض غبار الانحراف من الأفراد، والوصول إلى جلاجلان القلوب.

ولذا كانت التوبة الجماعية في التاريخ من أقسى أساليب التوبة، وفي توبة قوم موسى عليه السلام نموذج حي، وقد قاموا بكل رضا بتحقيق

(١) المصدر السابق، ص ٤٠٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩٩.

(٣) سورة طه، الآية ١٣٠.

(٤) سورة ق، الآية ٣٩.

متطلبات التوبة، فقد شعروا أنهم وقعوا في ضيق، ما بعده فرج، حين عبدوا العجل، فأخذوا يقتلون أنفسهم وكأنهم يدافعون عن خيوط رقابهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

قال علي عليه السلام: «إن موسى لما خرج إلى الميقات، ورجع إلى قومه وقد عبدوا العجل قال لهم موسى: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم فقالوا له: كيف نقتل أنفسنا، قال لهم موسى: اغدوا كل واحد منكم إلى بيت المقدس ومعه سكين أو حديدة، أو سيف، فإذا صعدت أنا منبر بني إسرائيل فكونوا أنتم ملثمين لا يعرف أحد صاحبه، فاقتلوا بعضكم بعضاً، فاجتمعوا سبعين ألف رجل ممن عبدوا العجل إلى بيت المقدس، فلما صلى بهم موسى وصعد المنبر، أقبل بعضهم يقتل بعضاً حتى نزل جبرائيل فقال: قل لهم يا موسى ارفعوا القتل، فقد تاب الله عليكم»^(٢) فقتل منهم عشرة آلاف وأنزل الله ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

بقي أن نذكر، أن رفع العذاب عن قوم يونس عليه السلام تم قبل إطباقه ووقوعه عليهم، عن الزجاج قال: «وقوم يونس لم يقع بهم العذاب، إنما رأوا الآية التي تدل على العذاب، فمثلهم مثل العليل الذي يرجو

(١) سورة البقرة، الآية ٥٤.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٢٢٢.

العافية ويخاف الموت»^(١).

فالإيمان لا ينفع عند وقوع العذاب، حيث الإيمان قضية ذاتية، لم يجبر الله أحداً عليها ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾^(٢) أي يقدر على جبرهم على الإيمان لكن لما لم ينفع إيمان الملجأ لما فاته التكليف لم يجبرهم^(٣).

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٤).. في العيون: عن الرضا عليه السلام إنه سأل المأمون عن هذه الآية فقال: حدثني أبي عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إن المسلمين قالوا لرسول الله ﷺ: لو أكرهت يا رسول الله من قدرت عليه من الناس على الإسلام لكثير عددنا وقوينا على عدونا، فقال رسول الله ﷺ: ما كنت لألقى الله ببدعة لم يحدث إلي فيها شيئاً، وما أنا من المتكلفين فأنزل الله عليه يا محمد: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ﴾^(٥).

والإيمان في وقت نزول العذاب يصير الحال وقت الإلجاء، فالتوبة في هذا الحال غير مقبولة، ولهذا السبب قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾^(٦).

(١) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٨٥.

(٢) سورة يونس، الآية ٩٩.

(٣) الجواهر الثمين في تفسير الكتاب المبين، ج ٣، ص ١٨٩.

(٤) سورة يونس، الآية ١٠٠.

(٥) التفسير الصافي - الفيض الكاشاني - ج ٢ - ص ٤٢٧.

(٦) سورة غافر، الآية ٨٥.

ومما سبق نعرف الفرق بين توبة قوم يونس عليه السلام وتوبة فرعون، فقوم يونس توبتهم حصلت قبل نزول العذاب، وهذا واضح من سير الوقائع، فإيمانهم وتوبتهم لم تبلغ مرحلة الإلجاء، أما فرعون فكانت توبته بعد إدراكه الغرق ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١).

سئل الرضا: لأي علة أغرق فرعون وقد آمن به وأقر بتوحيده؟ قال: لأنه آمن عند رؤية البأس، وذلك غير مقبول، وذلك حكم الله ذكره في السلف والخلف قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾^(٢)... وهكذا فرعون^(٣).

(١) سورة يونس، الآية ٩٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٥٨.

(٣) علل الشرائع، ج ١، ص ٥٩.

يونس عليه السلام ودوافع الهجرة

أجمعت إرادة أهل نينوى، على التخلص من أدران الذنوب والأوبة لله، وقد بدأت قصة الهجرة حين خرج مغاضبا إلى ساحل البحر، ولم يعرف أحد دوافعه الذاتية للهجرة عن بلاده، وهل هاجر قبل توبة قومه، بدافع تكذيب قومه له، ففر غاضبا عليهم^(١).

بعض الروايات بينت أن خروجه كان بعد توبة قومه، وهنا يذكر العلامة المجلسي رحمه الله، تعليلا لخروج يونس عليه السلام في هذا الحال فيقول: «لما كان الظاهر من أكثر الأخبار أنه كانت هجرته عن القوم، بعد العلم بتوبتهم، وصرف العذاب عنهم، فيحتمل أن يكون غضبه كناية عن حزنه، وأسفه على طلب العذاب لهم، وخوفه من أن يكذبوه بعد رجوعه إليهم، حيث لم يقع ما أخبر به».

وقد فُسر خروجه غاضبا ببعض الأقوال التي لا تتناسب ومقام النبوة، بل لا تليق حتى بأتباع الأنبياء، مثل أن يونس عليه السلام انطلق هاربا

(١) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٩٠.

على وجهه مغاضبا لربه لتكذيب الوحي له.

وكما ترى، كلام مستهجن يذرق عليه، وفي هذا يقول السيد المرتضى ثُمَّ: «أما من ظن أن يونس خرج مغاضبا لربه، من حيث لم ينزل بقومه العذاب، فقد خرج في الافتراء على الأنبياء بسوء الظن بهم عن الحد، وليس يجوز أن يغضب به إلا من كان معاديا وجاهلا بأن الحكمة في سائر أفعاله، وهذا لا يليق بأتباع الأنبياء من المؤمنين، فضلا عما عصمه الله ورفع درجته»^(١).

وتفسير آخر، أوهن من سابقه، ورجيع مردود على صاحبه، وهو أن يونس عليه السلام هاجر فرارا عن المسؤولية، وطالبا للإعفاء عن مهمته المقدسة، وصاحب هذا الرأي تركه وقوله، وقد تذرع في الكلام وأفرط، حيث قال: «وفي اعتقادي إن يونس كلف بالذهاب إلى أولئك القوم عقيب نبوته، ولم يكن مرن على النبوة وواجباتها وآداب أهلها لأن العلم بذلك يستدعي مدة وتكرر الوحي والازدياد من معرفة الله، والارتياض على تلقي الوحي وتلقيه، فحدثته في النبوة هي التي خيلت إليه ما قلنا، من أنه خيل إليه أنه بابتعاده وتغريبه في البلاد ربما استتبع إعفائه من تلك الأمور، أضيفوا يخاطب تلاميذه إلى ذلك أنه كان حديث السن، فقد أورد الألوسي في تفسيره: «إن سنة كانت ثمانية وعشرين سنة ومن كان حديث العهد بالنبوة وفي مثل سن يونس يغفر الله لهم بعض ما عملوه عن غير تمرد وقصد جازم إلى المعصية».

(١) تنزيه الأنبياء، الشريف المرتضى، ص ١٤١.

وقد رُدَّ عليه بحرُ الكلام وأحسنه «من الواضح الذي لا يختلف فيه اثنان من المسلمين أن الأنبياء والرسل ليسوا كأحاد الناس، بل هم أفضل منهم جميعاً لأنهم أنبياء الله ورسله، اصطفاهم لهداية خلقه واختارهم لأداء رسالته وهو سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته، فكيف يصح أن يقال، بل كيف يصح أن يخطر على البال أو يمر على الخيال، أن يونس عليه السلام لحداثته في النبوة وعدم مرونة عليها وعلى واجباتها وآدابها خيل إليه أنه بابتعاده وتغربه في البلاد ربما استتبع إعفاهه من تلك المأمورية؟

ومعنى ذلك: أن الله أرسله لقوم فترك تبليغهم الرسالة وفر هارباً في البلاد وظن لحداثته في النبوة وعدم مرونة على واجباتها أنه بهروبه كذا قد يعفى من الرسالة نستغفرك اللهم ونتوب إليك سبحانه هذا بهتان عظيم.

وعلى كل حال، فقد شاءت الحكمة الربانية أن يكون يونس عليه السلام حبيس الحوت لأمر أراه الله تعالى، عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله، لأي علة صرف الله عز وجل العذاب عن قوم يونس وقد أظلمهم ولم يفعل ذلك بغيرهم من الأمم، فقال: لأنه كان في علم الله عز وجل أنه سيصرفه عنهم لتوبتهم، وإنما ترك إخبار يونس بذلك، لأنه عز وجل أراد أن يفرغه لعبادته، في بطن الحوت فيستوجب بذلك ثوابه وكرامته.

يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في بطن الحوت

اتجه يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ نحو الساحل، وقد ضاق بقومه ذرعاً، وفي رأسه خُطّة، متمنياً لو يركب جناحي طائر ويفارق وطنه، فإذا سفينة قد شحنت، وأرادوا أن يدفعوها، فسألهم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يحملوه فحملوه، فلما توسطوا البحر فإذا به رجراج، والرياح حنت بصوت كأنه حنين الإبل، وقتئذ بعث الله حوتاً عظيماً فحبس عليهم السفينة من قدامها، فنظر إليه يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ففرغ منه، ولسان حاله يقول: حنانيك يارب حنانيك. وصار على مؤخرة السفينة فدار إليه الحوت وفتح فاه^(١).

عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «...فساهموا ثلاث مرات فقال يونس، إياي أراد فاقدفوني، ولما أخذت السمكة يونس، أوحى الله تعالى جل وعلا إليها إني لم أجعله لك رزقاً، فلا تكسر له عظماً، ولا تأكل له لحماً، قال فطافت به البحار فنأدى في الظلمات ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾»^(٢).

(١) يراجع بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٨٠.

(٢) المصدر السابق، ج ١٤، ص ٣٩١.

وعن الأماكن التي قطعها الحوت في أعماق البحار، وظلماته، ورد أن علياً عليه السلام أجاب في معرض رده على سؤال بعض اليهود قائلاً: أما السجن الذي طاف أقطار الأرض بصاحبه، فإنه الحوت الذي حبس يونس في بطنه فدخل في بحر القلزم، ثم خرج إلى بحر مصر، ثم دخل إلى بحر طبرستان، ثم خرج في دجلة الغوراء»^(١).

وحسب تتبعي للخريطة الجغرافية، أظن والله العالم أن الحوت أخذ يونس عليه السلام في رحلة بدأت من ساحل العراق المطل على الخليج، مروراً بالبحر الأحمر (عرف قديماً ببحر القلزم)، والنيل (بحر مصر) حتى البحر الأسود (بحر طبرستان)، ثم عاد أدراجه لدجلة.

ويونس عليه السلام في بطن الحوت ظل ينادي ربه في الظلمات الثلاث (الحوت والبحر والليل) وهو لا ذبر له حيث لا نطق، ولا لسان يتكلم به من ضعفه، وقد أذابه الهم والغم وأضناه، حتى استجاب الله له وحل ربقة، وأمر الحوت فلفظه، وأذراه على ساحل البحر.

وقد ذهب جلده ولحمه، وأنبت الله عليه شجرة ربوض، عظيمة غليظة من يقطين، فأظلت من الشمس فسكن كالأسد الرابض المريض، ثم أمر الله الشجرة فتنتحت عنه، ووقعت الشمس عليه فجزع، وما برجله ذهن وقوة على الحراك، فأوحى الله إليه: يا يونس لم ترحم مائة ألف أو يزيدون وأنت تجزع من ألم ساعة. فقال: يا رب عفوك، عفوك، فردّ الله صحة بدنه»^(٢).

(١) تفسير نور الثقلين، الشيخ الحويزي، ج ٤، ص ٤٣٥.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٨١.

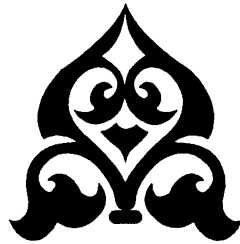
وقد بقي يونس عليه السلام في بطن الحوت ثلاثة أيام^(١) وهناك روايات أخرى تباينت في مدة بقاءه. وبعد أن فرّج الله كربة يونس عليه السلام أخبره بإيمان أهل نينوى، أمراً إياه بالرجوع إليهم، وقد ربط قلبه بالصبر وألهمه إياه وقوّاه. فانطلق يونس عليه السلام إلى قومه.

فلما دنا من نينوى استحي أن يدخل، فقال لراع لقيه: ائت أهل نينوى فقل لهم: إن هذا يونس قد جاء، قال الراعي: أتكذب؟ أما تستحي ويونس قد غرق في البحر، وذهب. قال له يونس: اللهم إن هذه الشاة تشهد لك إني يونس، فلما أتى الراعي قومه، وأخبرهم بأنه رآه، رأي العين، أخذوه وهموا بضربه، فقال: إن لي بينة بما أقول، قالوا: من يشهد، قال: هذه الشاة تشهد، فشهدت بأنه صادق، وأن يونس قد رده الله إليهم، فخرجوا يطلبونه فوجده، فجاءوا به وآمنوا، وحسن إيمانهم فمتعهم الله إلى حينئذ^(٢)، وقد وجدهم يونس على رِيعاهم التي أخبره الله بها.

٦ رمضان ١٤١٤ هـ.

(١) المصدر السابق، ج ١٤، ص ٣٨٣.

(٢) المصدر السابق، ج ١٤، ص ٣٨٣.



يوسف عليه السلام

الصديق وأحداث الأيام

تمهيد

دراستي هذه تتخذ منحيين، الأول، دراسة القصة بجزئياتها وفصولها باعتبار يوسف عليه السلام بطل من أبطال الرسالة السماوية، والمنحى الآخر، استخلاص العبرة والدروس في محاولة لفهم طبيعة النفوس البشرية والصراع بين الحق والباطل، محاولاً أن أتخذ من القصة رموزاً لفهم مجموعة من الحقائق المتعلقة بمعارج الكمال عند الإنسان.

إن دراسة قصة هذا النبي على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام تعني الحصول على كنز ثمين وتجربة غنية بالعطاء والروح الواقعية. ولعل أهم ما يميز هذه القصة أنها ترسم صورة حقيقية عن طبيعة الحياة وتقلبها فهذا يوسف عليه السلام قد طحنته أحداث الأيام، وبيع بثمان بخس، وغيب في السجن، ثم بدأ الفرّج، عن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام قال: «قد كان يوسف بين أبويه مكرماً ثم صار عبداً حتى بيع بأخس وأوكس الثمن ثم لم يمنع الله أن بلغ به حتى صار ملكاً».

إن المرء قد يخطط ويرسم مستقبله، ولكن تقلبات الحياة قد

تجعل عيشه مضبوح غير خالص من الآلام، فيبقى حائراً وهناً تأتي أهمية قراءة ودراسة تجارب عاشها أناس ربانيون كيوسف عليه السلام حتى تكون قصصهم نوراً في دروب الحياة، وشرعةً يتبعها المؤمنون ويسيرون وفقها.

١٩٩٤/٤/٥ م

الذئب - القميص - الدم

في ليلة من الليالي العظيمة، ليلة القدر وكانت ليلة الجمعة يرى يوسف عليه السلام وهو بعد لم يتجاوز السنة السابعة من عمره، وعلى رواية اثنتي عشرة سنة^(١) في منامه حُلماً يعبر عن نهاية سعيدة، وخاتمة بهيجة، لسلسلة من المعاناة سوف تعصف به.

جاء إلى أبيه يعقوب عليه السلام مبادراً: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(٢).

علم يعقوب عليه السلام أن ابنه سوف يصبح من ذوي الشأن، وفي ذات الوقت أخذته هواجس الخوف عليه، فذهبت نفسه شعاعاً، فنصح ابنه قائلاً: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾^(٣).

أخذت الذكريات تُلقِي بيعقوب عليه السلام بعيداً، وشتَّ بقلبه الوجد إلى مسقط رأسه، إلى ذلك البيت الصغير الذي جمع بينه وبين أخيه

(١) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢١٩.

(٢) سورة يوسف، الآية ٤.

(٣) سورة يوسف، الآية ٥.

العيص، وكيف أن أمهما كانت خائفة على مصيره ﷺ من بطش أخيه العيص الذي عرف بحب اللهو والصيد والجرأة، فأشارت ليعقوب ﷺ أن يذهب إلى خاله لابان بن بتوئيل بن تارح بن ناحور.

تزاحمت الأفكار في ذهن يعقوب وكأنها سرب من الغربان هوت على شجرة، يوسف ﷺ ما زال واقفاً أمامه تذكر زوجته راحيل أم يوسف وبنيامين التي تزوجها بعد وفاة زوجته ليا التي أولدت أولاده الآخرين.

خوف يعقوب ﷺ على ولده وليد تجربة مرة عاشها مع أخيه، لقد رأى يعقوب في يوسف ﷺ شخصه، وفي أخوة يوسف شخص أخيه العيص.

ومع هذا القلق والخوف لم يُخفِ تعلقه بيوسف ﷺ رغم أنه كان يحاول إيجاد أرضية مشتركة بين يوسف وأخوته، ويعتقد البعض أن هذا هو خطأ يعقوب ﷺ القاتل، ولكنني أعتقد أن هذا ليس بصحيح، وذلك لأن المربي كما عليه أن يحاول صهر الأخوة في وحدة عميقة الجذور، عليه أيضاً أن يلاحظ الفروق الفردية، فليس من الصحيح صبّ الأبناء في قالب واحد، وإذابة الفروق الشخصية، ويعقوب لو عمل على إذابة شخصية يوسف ﷺ المتميزة في سبيل إرضاء أبنائه، وغضّ النظر عن صفاته المتميزة فذلك يعني قبر تلك الملامح التي ينتظر أن تتفتق في المستقبل.

هذا بالإضافة «إلى أن التفضيل بين الأولاد في العطاء والمحبة والإكرام إذا كان لأمر ديني ولفضيلة واقعية لم يدل دليل على كونه مرجوحاً

بل دلت الأخبار المعتمدة على رجحانه فعلى هذا لا حرج في تفضيل يعقوب يوسف مع علمه بأنه سيكون من الأنبياء والصديقين عليهم ولا يوجب العلم بحسد الإخوة ترك أمر راجح ديني يقتضيه العقل والشرع»^(١).

وفي مقابل ذلك الحب المتميز ليوسف عليه السلام، تداول الأمر أخوته، معتقدين أنهم أولى بحب أبيهم من يوسف عليه السلام وذلك لأنهم عصابة صناعية، متعاضدون يقومون بتدبير شؤون المنزل، وأما يوسف عليه السلام فهو لا يريش ولا يبرى، لا ينفع ولا يضر ﴿إِذْ قَالُوا الْيُسُفُّ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾^(٢).

«ولو أنهم فهموا بعض الفهم لعرفوا أنهم جاءوا بحشية امتاز ذلك الصغير بالحب لأنهم عصابة، ولأنهم أشداء وهو صغير يعطف عليه، فلا يقيسوا العطف والحب هنا على العطف والحنان عليهم، لأنهم اجتازوا مرحلة العطف والحب، فالإنسان منا يحب صغيره لأنه يعتقد أن هذا الصغير بالنسبة لأخوته هو أقصرهم عمراً، وإنه في حاجة مع العجز إلى شيء كثير من الحب، فلو أن الكبار فهموا تلك العلاقة لما وجدوها عيباً في الأب»^(٣).

بعد مداولات اقتنعوا بضرورة التخلص من يوسف عليه السلام، فقال بعضهم: نستأصل شافته ونزيله من أصله ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾^(٤).

(١) المصدر السابق، ص ٣٢٣.

(٢) سورة يوسف، الآية ٨.

(٣) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج ٢، ص ٤٢.

(٤) سورة يوسف، الآية ٩.

لكن كبيرهم جاء بحل وسط ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ
بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾^(١) وهكذا اجتمعت إرادتهم في عزمة صمعاء ماضية
على مبدأ التخلص من أخيهـم.

ولابد من القول بأن التخلص من يوسف عليه السلام لم يهدف منه
الأخوة سد حاجات ماسة وضرورة كان يوسف عليه السلام يقف سداً منيعاً
عنها، بل مجرد الطموح للوصول لقلب الأب.. إنهم يريدون زيادة
نفوذهم وتأثيرهم على أبيهم، ولو كان الثمن حياة أخيهـم، وبكلمة حتى
ولو كلف العار والشنار.

إن الإنسان لا يرتكب الحرام ليوفر لنفسه ضرورات حياته من
الطعام والمأوى والجنس إنما بدافع إشباع طموحه في المجد والخلود،
فأدم كان في الجنة يأكل منها حيث يشاء رغداً، وكانت إلى جانبه حواء
يسكن إليها وتسكن إليه، ولهم في الجنة مستقر وأفضل مأوى، إنما
حب العظمة والخلود هو الذي مكن الشيطان من تضليلهما ﴿إِلَّا أَنْ
تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾^(٢).

وحين نتبع خيوط الجريمة نلاحظ البداية الفعلية تمثلت في نداء
أحدهم: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا
مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾^(٣) يا لها من أطروحة شيطانية، استطاع أن
يجمع لهم بين الدين والدنية، بين الحق والباطل، بين أن يكونوا قتلة

(١) سورة يوسف، الآية ١٠.

(٢) الثقافة الرسالية، ص ٥٨.

(٣) سورة يوسف، الآية ٩.

طفل بريء وبين أن يكونوا صالحين في يوم من الأيام، حقاً إن للشيطان مصالي وفُخُخاً.

إن هذا الأسلوب من التدبير قد أحمَد محكمة الضمير في قلوبهم، وانساقوا وراء الشيطان بالرغم أنهم تربوا في بيت يحترم أمور الدين وأحكامه المقدسة وقولهم: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ إن هذا التوبة غير مقبولة البتة، والعلة في ذلك أن توطين النفس على المعصية ثم التوبة لا يقصد منها التوبة بذاتها، بل أصبحت تتمه لما أَرَادَهُ من المعصية لا رجوعاً إلى الله بالندم^(١).

ثم كانت الخطوة الثانية، جاءوا إلى أبيهم محاولين إقناعه بالسماح ليوسف عليه السلام الذهاب معهم، وإنهم لن يسمحوا أن يلحقه أذى، ولن تشوكه منهم شوكة: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾^(٢).

وهدرت شِقْشِقَةُ يعقوب عليه السلام مُفَصِّحاً عما في نفسه قائلاً لهم: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ ومع إصرارهم وخوفاً من تأجج روح البغض في نفوس أخوته استجاب يعقوب عليه السلام لهم وهو كاره لذلك، فخرجوا بيوسف عليه السلام من منزلهم وهم يلاطفونه.

وفي مشهد مؤثر يخرج يعقوب عليه السلام على أثرهم مسرعاً فينتزع

(١) تفسير الميزان، ج ١١، ص ٩٦.

(٢) سورة يوسف، الآيتان ١١-١٢.

يوسف عليه السلام من أيديهم يعانقه باكياً، وكأنه شعر بأمر قد بيتوه، وإن الشفيق بسوء الظن مولع.

انطلقوا به مسرعين مخافة أن يأخذه منهم مرة أخرى ولا يدفعه إليهم، ولما شسوا عن البلدة أظهروا له العداوة وراغوا عليه يضربونه وهو يستغيث بواحد واحد منهم فلا يغيثه، وكان يقول: (يا أبتاه).

وحين وصلوا غيضة أشجار قالوا: «نذبحه ونلقيه تحت هذه الشجرة فيأكله الذئب الليلة» فمنعهم يهودا وقيل لاوي، كما رواه بعض أصحابنا، وانطلقوا به إلى الجب وجعلوا يدلونه فيه، وهو يتعلق بشفيرها، ونزعوا قميصه عنه وهو يقول: «لا تفعلوا ردوا عليّ قميصي أتواري به» ودلوه إلى البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت وكان في البئر ماء، فأوى إلى صخرة فقام عليها^(١).

طفل لم يبلغ سبع سنين^(٢) يُغيب ولأجل ماذا؟!... رغبة في تأكيد الذات، وطمعاً في مرتبة.. كم في عالمنا الاجتماعي من مأس.. كم من الأخوة نراهم يقعون ضحايا يدفعون حياتهم ثمناً لأغراض دنيئة، إن قصة يوسف عليه السلام وإخوته يجب ألا تعطينا صورة قاتمة عن العلاقات الاجتماعية النسبية ولسنا من الذين يقولون الأقارب عقارب، ولكن لابد من الاهتمام بتعزيز روابط الدم بوشائج الحب والمودة.

إن من يعتقد أن روابط الدم هي السور الذي يحمي الإنسان

(١) بحار الأنوار، ج ١٢.

(٢) الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين، ج ٣، ص ٢٦٥.

من الشرور والقلعة الحصينة مخطئ، إن القرابة قد تتحول إلى صراع مرير، بل لحرب حينما تفتقد المحبة، وتباين المصالح، وصدق أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «القرابة إلى المودة أحوج من المودة إلى القرابة»^(١).

رجع الأخوة إلى أبيهم بأذان النعام المصلم ذلاً ومهانةً باكين قائلين: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾^(٢).

بينتهم قميص يوسف ملطخ بدم ذبيحة «ناسين أن دم البشر يختلف عن دم الحيوان حتى بعد تخثره، والخير يميزه بسهولة، كما نسوا تمزيق القميص مما كشف أن العملية كذب باعتبار الذئب لا يخلع ثوب ضحيته ثم يأكله، وحينما رأى يعقوب القميص قال لهم في إشارة واضحة إلى كشف زيف قوله: لقد أكلت ذئب رحيم، أكل لحكم ولم يشق قميصك»^(٣)، والتفت إليهم قائلاً وكأنه أطلع على ذوات صدورهم وخبايا نفوسهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾^(٤).

بات يعقوب عليه السلام طوع الشوامت، ساءت حاله وشمته به العدو وأصبح القميص رمزاً لابن غائب مُغيب عن العيان، حاضر في الوجدان، وحول ما آل إليه حال يوسف عليه السلام في الجب، قال الإمام

(١) بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٦٤.

(٢) سورة يوسف، الآية ١٧.

(٣) من هدي القرآن، ج ٥، ص ١٧٢.

(٤) سورة يوسف، الآية ١٨.

الصادق عليه السلام: «نزل عليه جبرائيل فقال له: أيا غلام، من طرحك هنا، فقال: إخواني، فقال: أتحب أن تخرج من هذا الجب؟ قال: ذلك إلى إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فقال له جبرائيل: فإن إله إبراهيم وإسحاق يقول لك: قل اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، أن تصلي على محمد وآل محمد وأن تجعل من أمري فرجاً ومخرجاً، وترزقني من حيث احتسب ومن حيث لا أحسب»^(١).

وجاء في تفسير علي بن إبراهيم «فنزلت سيارة من أهل مصر فبعثوا رجلاً ليستقي لهم الماء من الجب، فلما أدلى الدلو على يوسف تشبث بالدلو فجروه، فنظروا إلى غلام من أحسن الناس وجهاً فعدوا إلى صاحبهم فقالوا: يا بُشْرَى هذا غلام، فنخرجه ونيعه ونجعله بضاعة لنا، فبلغ إخوانه، فجاءوا فقالوا: هذا عبد لنا أبق، ثم قالوا ليوسف: لئن لم تقر بالعبودية لنقتلنك، فقالت السيارة ليوسف: ما تقول؟ قال: أنا عبدهم، فقالت السيارة: فتبيعه منا؟ قالوا: نعم.

فباعوه منهم على أن يحملوه إلى مصر ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾^(٢)، عن الإمام الرضا عليه السلام في قول الله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ قال: كانت عشرين درهماً^(٣).

(١) مجمع البيان، ج ٥، ص ٢١٧.

(٢) سورة يوسف، الآية ٢٠.

(٣) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٢٢.

معاذ الله أنا من أهل بيت لا يزنون

سارت القافلة حاملة يوسف عليه السلام باتجاه مصر، وهناك اشتراه عزيز مصر وكان اسمه فيما يروى عن ابن عباس قطفير، وكان على خزائن مصر^(١) وطلب من زوجه ضمه إليهما قائلاً: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾^(٢) ويعقوب في كنعان يعتصر ألماً وكمداً، يوسف لا يرى سبيلاً للعودة فأصبح جسده في مصر وقلبه في كنعان (فلسطين).

ومع هذا الألم فقد شاءت إرادة الله أن يكون في كنف العزيز بداية التمكين له في الأرض، وبلورة لشخصيته الإيمانية وثقافته الربانية ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾^(٣).

(١) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج ٢، ص ٤٨.

(٢) سورة يوسف، الآية ٢١.

(٣) سورة يوسف، الآية ٢١.

عاش يوسف عليه السلام في رعاية الله، وصنعه ربه على عينه حتى أصبح بريء من الشوائب، ليس ما يعيبه بخلاف الوسط المحيط به، سواء في مقر سكناه أو خارجه، فقد كان الكل غارقاً في الترف، وقد قيل: إن استخدام السكاكين ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا﴾ يعطي انطباعاً عن مقدار التمدن والشأو البعيد في تحسن الأوضاع الحياتية، وكان حديث المجالس عندهم الفساد الخلقي^(١).

وما حدث ليوسف عليه السلام في منزل العزيز يقدم لنا صورة مجتمع فاسد آثم وكان ذلك على سُنْبِكَ وولاية الهكسوس (الرعاة) الذين اغتصبوا مصر وحاولوا صهر المجتمع المصري تحت سلطانهم، ولعل من وسائلهم كان نشر الانحلال والفساد.

وامرأة العزيز هي واحدة من النساء اللاتي جرفهن الفساد والترف، ساعدها في ذلك فشل زوجها في إشباع حاجاتها الطبيعية، مما جعل قلبها يستعر ناراً وتأججاً بسبب الإحساس بالخواء والجوع الجنسي، وفي رواية أن يوسف عليه السلام سألها بعد أن صار على خزائن الأرض قائلاً لها: «ما حملك على الذي صنعت؟» فقالت: «ثلاث خصال الشباب والمال وأني كنت لا زوج لي»^(٢).

لقد رأت زليخة في يوسف الشباب المتألق الغض المتفجر رجولة صاحب الجمال الذي يأخذ بمجامع القلوب القادر على إرواء ظمأها، وهو يعيش معها في بيت واحد. ولكن كيف تكشف له عما في

(١) من هدى القرآن، ج ٥، ص ١٩٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٩٦.

نفسها، وهو لا يبدي حركة اتجاهها، ولا نظرة تشجعها، فيوسف عليه السلام ليس من الرجال شاردٍ العين، الذين يتطلعون إلى ما ليس لهم.. بل وكيف تراوده وهي زوجة الوزير وهو العبد الذي اشتراه العزيز بدراهم معدودة.. تعاود نفسها قائلة: «لكنه رجل بين الرجولة والرجولية.. إنه كامل في الرجولة».

بقت تتذبذب حائرة أمداً غير قصير، حتى انهارت، ووقعت فريسة النزوة وشهوة الجنس، وباتت على صمات أمرها، قاصدة تحقيق رغبتها، حتى اغتنمت فرصة غياب زوجها عن الدار، فأحكمت غلق أبواب القصر، وتضرّجت متزينة، وتبدت ليوسف عليه السلام في أحسن حال، وظنت أنها قد ظفرت بما أرادت، وإن يوسف عليه السلام سوف ينصت لأمرها ويقول لها: لبيك وسعديك.

فقالت له: هيت لك^(١).

(١) قام السيد قطب بمحاولة للتوصل إلى تقدير عمر زليخة، ويوسف عن طريق التحليل الآتي: لقد كان يوسف غلاماً عندما التقطته السيارة وباعته في مصر. أي أنه كان حوالي الرابعة عشرة تنقص ولا تزيد، وفي هذا الوقت كانت هي زوجة.. على أن خاطر التبني لا يرد على النفس عادة إلا حين لا يكون هناك ولد، ويكون هناك يأس أو شبه يأس من الولد، فلا بد أن تكون قد مضت على زواجها فترة يعلمان فيها أن لا ولد لهما.

وعلى كل حال فالمتوقع أن تكون سنّها حينئذ حوالي الثلاثين ونتوقع كذلك أن تكون سنّها أربعين سنة عندما يكون يوسف في الخامسة والعشرين أو حواليها. وهي السن التي نرجح أن الحادثة وقعت فيها. نرجحها لأن تصرف المرأة في الحادثة ما بعدها يشير إلى أنها كانت مكتملة جريئة مالكة لكيدها، متهاكة على فتاها. (راجع يوسف في القرآن الكريم والتوراة، د/ زاهية الدجاني).

كلمة تمثل الاستعداد للخيانة الزوجية، بسبب انعدام التوافق الجنسي مع زوجها وتيار البيئة الفاسدة، ومع ذلك «فإن خيانة المرأة لزوجها قد يكون وليد عوامل أخرى تختلف من امرأة خائنة إلى أخرى، فقد تكون أحياناً وليدة الاحتجاج والتمرّد لا سعياً وراء الحب واللذة، وقد تقوم أحياناً أن تمتع المرأة بالحرية هو المسئول عن تلك الإباحية التي قد تدفع بها إلى الخيانة»^(١).

وجاء ردّ يوسف عليه السلام سريعاً دون أن يرفع لها رأساً: «معاذ الله، أنا من أهل بيت لا يزنون»^(٢).

لم تفسر زليخة استعصام يوسف عليه السلام إلا بالخوف، فأكدت له أنها قد أغلقت الأبواب وهي تقول له: (لا تخف) وشحت في الفتنة وتوسعت، فتمايلت في اتجاهه، وكأنها تريد أن تلقي بنفسها عليه، ولكن يوسف عليه السلام أفلت منها هارباً.

موقف الطهارة والإيمان ليوسف عليه السلام ذكره القرآن العظيم، ثم أعقبه بآية ضل الكثير في فهمها، ولو أنهم نظروا لما قبلها لما.. والآية ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾^(٣)، فقد تصور البعض أن قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ يرمي إلى عزمه على القبيح والاستجابة لمرادة التي هو في بيتها.

يقول الشيخ محمد جواد مغنية في تفسيره: «أجاب المفسرون عن

(١) سيكولوجية المرأة، ص ١٠٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٧٥.

(٣) سورة يوسف، الآية ٢٤.

ذلك بأجوبة بعضها فيه وقاحة وبعضها بعيد عن ظاهر الكلام، وأقرب الأجوبة إلى الظاهر ومقام الأنبياء، أن في الآية تقديمًا وتأخيرًا والأصل هكذا: (ولقد همت به لولا أن رأى برهان ربه هم بها) ومعنى هذا أنه ما همّ بها إطلاقاً تماماً كقول القائل لولا فلان لهلك^(١).

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قُلُوبِنَا﴾.

إن تركيب الآية وصياغتها توحى بأنه لم يهَمَّ بها، وتنفي عنه الهم... الواو استئنافية وليست عاطفة، ويجب الوقوف على الضمير في (به)، فتقرأ هكذا: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾، ثم يستأنف القارئ: ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، وجملة ﴿هُمْ بِهَا﴾ جواب الشرط، لحرف الشرط ﴿لَوْلَا﴾ مقدم عليها. ترتيب الجملة هكذا: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها^(٢).

هرب يوسف عليه السلام إلى الباب ولسان حاله: «لا أفعله ما سَمَرَ السمر» ففتحته ولحقت زليخة به وقد أخذها سكر الشباب تجذب قميصه من خلفه حتى استطاعت أن تنتزعه منه، وكانت المفاجأة: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَىٰ الْبَابِ﴾.

فبادرته بكلمة صاغتها وزيتها ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣).

(١) تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٠٠.

(٢) لطائف قرآنية، د. صلاح الخالدي، ص ١٤٠.

(٣) سورة يوسف، الآية ٢٥.

إنها كالعقرب، تلدغ وتضأى، تظلم وتشكو، وتحول عشق زليخة إلى عدااء مستحكم، وهكذا «المرأة التي لا تخاف الله قد تتحول من شخصية محبة إلى شخصية مُعادية في ساعات محدودة في حالة عدم تحقيق حاجاتها غير المشروعة حتى وصل الأمر إلى أن تودع البطل في السجن فضلاً عن تشويه سُمعته.. إن المرأة تصبر على الحب أعواماً لكنها لا تكتم كراهيتها ساعة»^(١).

دافع يوسف عليه السلام عن نفسه قائلاً: «والله يعقوب ما أردت بأهلك سوءاً بل هي راودتني عن نفسي فاسأل هذا الصبي أين راود صاحبه عن نفسه» وكان عندها صبي زائر، فأنطق الله الصبي لفصل القضاء فقال: «انظر إلى قميص يوسف فإن كان مقدوداً من قدامه فهو الذي راودها وإن كان مقدوداً من خلفه فهي التي راودته».

فلما سمع كلام الصبي فزع فزعاً شديداً، فجيء بالقميص فنظر إليه فلما رآه مقدوداً من خلفه، عرف فعلتها الشنعاء، وأغمض عينيه طلباً للستر والكتمان بدل التشهير والفضيحة، فقال لها: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾^(٢) وعرف العزيز أن يوسف عليه السلام ما عليه في ذلك منقصة فقال له: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ لا يسمعه منك أحد واكتمه.

إن موقف العزيز يشير إلى ضعف شخصيته أمام زوجته، بل وكأن الغيرة قد سُلبت منه، وإلا كيف يسكت عما رآه من زوجته رأي العين

(١) دراسات فنية في قصص القرآن، ص ٢٢١.

(٢) سورة يوسف، الآية ٢٨.

من مرادة فتاها، بل يأمره بالإعراض عن الأمر.

انتشر نبأ مرادتها ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾، فأرادت امرأة العزيز أن توقف ألسنة تلك النسوة، فأرسلت إليهن وهيات لهن طعاماً ومجلساً، ثم أتتهن بأترج وأتت كل واحدة منهن سكيناً، ثم قالت ليوسف: ﴿اخرج عليهنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾^(١) فقالت امرأة العزيز لهن: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾.

«قالت هذا بلغة الحرية التي تطالب بها فئة من بنات الجيل الجديد حرية بلا مسؤولية حتى في التهلك والتفسخ، ونحن من أنصار الحرية للرجال والنساء، ولكن في حدود المسؤولية عن الأقوال والأفعال»^(٢).

وقالت وقد أبدت صفحتها وباحت بسرها بدون حياء ولا حشمة، ورغم أن المرأة أقدر على حفظ أسرارها، وأميل إلى إفشاء أسرار الغير^(٣): ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾^(٤).

قالت كل ذلك أمام النسوة، وبدون خوف من زوجها أو من الرأي العام، في حين «أن حياء المرأة ومحافظتها على شرفها يعود في كثير

(١) سورة يوسف، الآية ٣١.

(٢) تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٠٩.

(٣) خلق المرأة، ص ٧٠.

(٤) سورة يوسف، الآية ٣٢.

من الأحيان حرصها على سمعتها وخوفها على نفسها، وإن كان ينبغي أن يكون قانون المرأة وحافظها قبل كل شيء على احترامها لنفسها وحرصها على كرامتها»^(١).

استمرت معاناة يوسف عليه السلام وتعاظم الامتحان، ولكن هذه المرة مع تلك النسوة، وكما يقولون ضُغْتُ على إبالة، بلية على أخرى، ففي رواية أن النسوة أرسلت كل واحدة منهن إلى يوسف عليه السلام سرّاً تسأله الزيارة وكأنهن ظنن أن يوسف عليه السلام زير نساء - حاشا لله -.

«يبدو أن النسوة اختلن بيوسف الواحدة تلو الأخرى بحجة السعي وراء إقناعه بقبول كلام سيده، ولكنهن عرضن ليوسف الفجور بهن، والشاهد هو قول يوسف الذي ضاق بهن ذرعاً، وتوسل بالله أن ينقذه من أيديهن، ولو كان بالسجن ﴿قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾^(٢).. لقد كانت الإغراءات كبيرة إلى درجة نرى يوسف ذلك الفتى الصديق يستعين بالله منها ويقول: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣).

وهنا لابد من التوقف عند الأسباب التي دفعت يوسف عليه السلام إلى رفض عرض زليخة المغري والنسوة من بعدها، وفي ظني أن البعض لا يجد صعوبة في تفسير رفضه من منطلق نبوته عليه السلام وعصمته، فإن نبوته وعصمته هما اللتان جعلته يقاوم إغراءهن.

(١) خلق المرأة، ص ٧٢.

(٢) سورة يوسف، الآية ٣٣.

(٣) من هدى القرآن، ج ٥، ص ١٩٤.

ونحن مع اعتقادنا بصحة هذا القول مجملًا إلا أنه لا بد أن نضيف أن الأنبياء ومنهم يوسف عليه السلام بشر، يذوق جسدهم ألم الجوع والإرهاق والعذاب، وتحسس قلوبهم ألم الغربة وضغط الشهوات المكبوتة.

إن اجتياز الأنبياء للمواقف الصعبة يمر عبر عاملين: توفيق الله -العصمة- وروح الإيمان والتي مزود بها كل مؤمن من الناس، وبالتالي فإن أردنا أن نبحت عن عوامل مقاومة يوسف عليه السلام الإغراء لا بد أن نأخذ العامل الآخر، كما وضعنا العامل الأول -العصمة- بعين الاعتبار حتى نستطيع التزود من الروح الإيمانية التي عند يوسف عليه السلام وتصبح رصيдаً يقاوم به المؤمن حالات الإغراء وعوامل الانحراف.

وأسابغ رفضه عليه السلام مجملة في قوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(١).

كم من المواهب التي أعطاها الله ليوسف عليه السلام.. كم من المواقف الصعبة نجاه الله منها، وقصته مع إخوته ليست ببعيدة، لقد تذكر يوسف عليه السلام كل تلك النعم الوفيرة، مما جعله يعرف نفسه ويجعلها عن الهبوط دون المستوى الأخلاقي الرفيع، وعلم أن واجبه شكر ربه وتقواه، وإن التقوى ضمام الخير كله.

وثانيًا: سوء العاقبة، فإن الزنا اعتداء على حرمة الناس، وتعدى على أحكام الله، ولن يفلح من تجاوز حدود الله، بل مصيره أن يكون

ساذراً في الغي حتى يركسه الله.. كل ذلك جعله يقول لا... بل ألف لا للانحراف.

«إن يوسف عليه السلام كان صديقاً أيقن قلبه أن جماله من الله وهو الذي أعطاه القوة ومكنه في الأرض، وأن من كفر بأنعم الله لا يفلح، وبسبب إيمانه الصادق بهذه الحقائق أدركه في ساحة المحنة إيمانه، وبلورت المعاناة شخصيته التي عُجنت بروح الإيمان والتقوى فظهر له برهان ربه وحجته البالغة في تلك اللحظة الشديدة من صراعه مع طبيعته ومع مجتمعه المتمثل في قوة ربه بيته»^(١).

(١) من هدى القرآن، ج ٥، ص ١٨٦.

يوسف عليه السلام في مقبرة الأحياء

أصبحت مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام حديث الناس، فعمل العزيز على اعتقال يوسف عليه السلام وإيداعه في السجن للتخلص من العار وكفاً للألسن التي أخذت تناله وزوجته، عسى أن يتصور الناس بأن يوسف عليه السلام هو الآثم وزوجته هي البريئة، كأنه لم يبق لهم سوى أن يرسلوا أصحاب السكك (البريد) بين الناس يسرحون في عرض يوسف عليه السلام...!!

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنتَهُ حَتَّىٰ جِئَ﴾^(١) وكانت الآيات شواهد براءة يوسف عليه السلام وتصبغه بدينه تمسكاً وتمكناً فيه، عن الباقر عليه السلام: «الآيات شهادة الصبي والقميص المخرق من دبر واستباقهما الباب حتى سمع مجاذبتها إياه على الباب»^(٢).

أما يوسف عليه السلام فقد قال كلمته: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا

(١) سورة يوسف، الآية ٣٥.

(٢) الجوهر الثمين في تفسير القرآن المبين، ج ٣، ص ٢٧٦.

يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ»^(١) من باب أهون الشرين، مع معرفته صعوبة الحياة في السجن، فالسجن منازل البلوى ومقابر الأحياء وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء.

هذا شأن يوسف النبي، أما المؤمن إن وقع بين أمرين كليهما شر (بين المطرقة والسندان) فعليه ألا يدعو بأحدهما، بل يطلب من الله العافية والسلامة في الدين، فالمرء لا يضمن استقامته كحال الأنبياء والأوصياء فيبقى الأفضل دعاء الافتقار «يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على طاعتك»^(٢). فدعاء الافتقار يعطي المؤمن الاستقرار النفسي من هواجس السجن ومخاطر الاعتقال وفي ذات الوقت يحمل المرء على تعزيز استقامته وصبره في جنب الله.

كان السجن الامتحان الثالث ليوسف عليه السلام فأحس بضنك العيش وعرف أنه سيقه القدر، فعمل على تقوية وبلورة جوانب الخير أكثر فأكثر في نفسه فعمّق الارتباط بالله، وكيف لا، وهو من ضنائن الله وخواصه، وعزز علاقته بالمحيطين به، وفي ذات الوقت هاجمته الهموم، وكأنها نزلت عليه ضيفاً، وحاصرت ذكرياته في كنعان.

كل هذه الأبعاد أججت فيه العاطفة الطاهرة وأظهرت معدنه الطيب وأصله الزاخر، فتوجه إلى الله وهو يسبح في بحر مليء بالتحديات «اللهم اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً وارزقني من حيث أحسب ومن حيث لا أحسب».

(١) سورة يوسف، الآية ٣٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٧٧.

ولما اشتد عليه الحبس خر ساجداً وقال: «اللهم إن كانت الذنوب قد أخلقت وجهي عندك فلن ترفع لي إليك صوتاً فإني أتوجه إليك بوجه الشيخ يعقوب»^(١) وكان حينما تنق ضفادع بطنه حيث بئس الضجيع الجوع، كان يطلب طعامه من ربه، فشكا إلى ربه عز وجل أكل الخبز وحده وسأل إداماً يأتدم به^(٢).

وكان يوسف عليه السلام ضافي الفضل على السجناء، على صير حاجتهم، يهتم بها، يشرف على قضائها، حتى أحبه القلوب وحاز على ثقتها حتى قال السجينان اللذان سألاه عن رؤيتهما: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣). جاء عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: «كان يقوم على المريض ويلتمس المحتاج ويوسع على المحبوس»^(٤)، وفي الكافي، عن الصادق ع: كان يوسع المجلس ويستقرض للمحتاج ويعين الضعيف^(٥).

هذا هو يوسف ذو الإحساس المرهف بالآلام الآخرين، أما يوسف من الداخل فقد أخذته الذكريات إلى كنعان، يتألم حيث يعلم أن والده لا تهناً له لذة ولا يتنعم بطيب فأخذ يبكي أباه، قد شلت عينه الدمع، حتى شككت وخالط بياضها حمرة، فتأذى به أهل السجن فقالوا له: «إما أن تبكي الليل وتسكت بالنهار، وإما أن تبكي النهار وتسكت

(١) المصدر السابق، ص ٢٥٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة يوسف، الآية ٣٦.

(٤) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٣٠.

(٥) تفسير الصافي، ج ٣، ص ٢١.

بالليل، فصالحهم على واحدة منهما»^(١).

لا يتصور أحد أن بكاءه لعدم قدرته على التحمل والتصبر والتجمل فيوسف عليه السلام ضابط قوي، ولكنه فراق الأحبة وهيجان العاطفة التي حاول أن يكتمها طيلة بقاءه عند العزيز، ولكن السجن وضيقه قد أثار مكانها، فبكى يوسف عليه السلام شجوه، وكما يقولون ويل للشجي من الخلي.

أخذ يدعو ربه ألا يضحي ظل أبيه يعقوب حتى يلقاه، وفي ذات الوقت يسأل نفسه: «ليت شعري ما صنعت العصابة بأخي بنيامين».

وهكذا أصبح يوسف مرهف الحس والشعور، وفي ضيق السجن أعطاه الله سعة في المعارف والحكمة، فألهمه الله علم تأويل الرؤيا^(٢)، فأصبح شهاب علم فيه. هذا العلم الذي سينال به صك براءته، والتمكين في الأرض وعرف من كان معه أن يوسف مطبوع في فن التأويل، وذو موهبة بلا تكلف.

ودخل السجن اثنان من حاشية الملك، ساقيه وخازن طعامه لتهمة ألصقت بهما، فقال الساقى: «رأيت أصل حبله عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيته وعصرتها في كأس الملك فسقيته إياها»، وقال الخازن: «إنني رأيت كأن فوق أطباق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وأنواع الأطعمة وسابع الطير تنهش منه».

(١) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٦٤.

(٢) الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين، ج ٣، ص ٢٧٦.

وقبل أن يأول لهما ذكر لهما أنه لا يعبر الرؤيا لكونها صناعة وحرفة، بل لكونه نبي مرسل، حيث قال: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾^(١) تماماً كما استدل عيسى عليه السلام على صدقه بقوله: ﴿وَأَبْنَيْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

ورعاية لشعور صاحب الرؤيا السيئة لم يحدد بنفسه صاحبها فقال: ﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾^(٣).

فردّ من رأى الطير تأكل من رأسه وكأنه ينصح صاحبه بعدم الاكتراث بما يسمع من يوسف مدعياً أن ما جاء به يوسف عليه السلام سوى شعراء ذات وبر (كذب) (إني لم أر ذلك) فقال يوسف عليه السلام: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ فهو حال بهما لا محالة وفيه دلالة على أنه يخبر عن الغيب بالوحي لا كما يعبر غيره على التأويل^(٤).

وفي غمرة الارتباط بالله، التفت يوسف عليه السلام للذي ظن أنه ناج منهما قائلاً: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

ولما كان الاعتصام والاستعانة بالله أولى من غيره فقد عاتب الله يوسف على استعانته بغيره، عن أبي عبد الله قال: «إن يوسف أتاه جبرئيل

(١) سورة يوسف، الآية ٣٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٤٩.

(٣) سورة يوسف، الآية ٤١.

(٤) الجواهر الثمين في تفسير القرآن المبين، ج ٣، ص ٢٨٠.

عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال له: يا يوسف إن رب العالمين يقرؤك، السلام ويقول لك: من جعلك أحسن خلقه؟ قال: فصاح ووضع خده على الأرض ثم قال: أنت يا رب، ثم قال له: ويقول لك: من حببك إلى أبيك دون إخوتك؟ قال: فصاح ووضع خده على الأرض وقال: أنت يا رب، قال: ويقول لك من أخرجك من الجب بعد أن طرحت فيها وأيقنت بالهلكة؟ قال: فصاح ووضع خده على الأرض ثم قال: أنت يا رب، قال: فإن ربك قد جعل لك عقوبة في استغاثتك بغيره فلبث في السجن بضع سنين»^(١).

قال الطبرسي قدس الله روحه: «إن الاستغاثة بالعباد في دفع المضار والتخلص من المكاره جائز غير منكر ولا قبيح، بل ربما يجب وكان نبينا يستعين فيما ينوبه بالمهاجرين والأنصار وغيرهم، ولو كان قبيحاً لم يفعله فلو صحت هذه الروايات، فإنما عوتب عَلَيْهِ السَّلَامُ على ترك عاداته الجميلة في الصبر والتوكل على الله سبحانه في كل أموره دون غيره واقتصر على غيره، وفي هذا ترغيب في الاعتصام بالله والاستعانة به دون غيره في الشدائد وإن جاز أيضاً أن يستعان بغيره»^(٢).

وبكلمة أراد سبحانه من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يقطع رجاءه من البشر وإن كان بهم رجوة، وذلك لأن أغلب البشر هم من الذين يحاولون انتهاز الفرص في الاستفادة من العلاقات والصدقات من أمثال الذي يشوي في الحريق سمكته، وحاشا لليوسف أن يكون منهم.

وحين عاد الساقى إلى القصر لم يعبأ بشكوى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ

(١) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٣٠.

(٢) مجمع البيان، ج ٥، ص ٤٠٥.

بالرغم ما أعطى من صفقة يده وعهده، فلبث يوسف ﷺ في السجن بضع سنين وفي رواية قيل أنها سبع وقيل اثنا عشرة سنة^(١).

لقد عاد الساقى إلى مقره في قصر الملك وهو يعرف يوسف ﷺ العالم الحكيم من خلال تفسيره للأحلام ومن خلال أحاديث يوسف ﷺ التي أسرها لهم والتي كان من أهمها توضيح الرؤية الصحيحة حول الكون والحياة حيث قال لصاحبيه: أنه رسول من الله ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ فلقد علمه الله تأويل الأحاديث.

وثانياً: أنه حنف عن الشرك الذي اتخذه قومه ملة لهم ورفض طريقه قومه وملتهم وثار على نظامهم الثقافي والاجتماعي ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾^(٢).

ثالثاً: أما الملة المثلى في طريقه آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب وهكذا بين يوسف أنه من سلالة النبوة ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾^(٣).

وإن طريقة هؤلاء قائمة على أساس التوحيد ورفض كل أنواع الشرك وكل ألوان العبودية والطاعة لغير الله ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(٤).

(١) تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣١٧.

(٢) سورة يوسف، الآية ٣٧.

(٣) سورة يوسف، الآية ٣٨.

(٤) المصدر السابق.

رابعاً: بين يوسف عليه السلام لصاحبيه وزميليه في السجن اللذين تقاسما وإياه المعاناة والأذى أن أكثر الحروب والصراعات الاجتماعية والخلافات الهدامة إنما هي نتيجة مباشرة للشرك، حيث أن كل فريق يعبد صنم أرضه وإقليمه وقومه وعشيرته وحزبه فيختلفون ﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(١).

(١) من هدى القرآن، ج ٥، ص ٢٠٠.

يوسف عليه السلام وصولجان الملك

أذن الله بالفرج ليوسف عليه السلام فبعث جبرئيل له في السجن قائلاً: «إن الله ابتلاك وابتلى أباك وإن الله ينجيك من هذا السجن، فاسأل الله بحق محمد وأهل بيته أن يخلصك مما أنت فيه».

فقال يوسف عليه السلام: «اللهم إني أسألك بحق محمد وأهل بيته إلا عجلت فرجي وأرحتني مما أنا فيه».

فقال جبرئيل مبشراً: «فابشر أيها الصديق، فإن الله تعالى أرسلني إليك بالبشارة بأنه يخرجك من السجن إلا ثلاثة، ويملكك مصر وأهلها يخدمك أشرافها، ويجمع إليك إخوانك وأباك، فابشر أيها الصديق إنك صفي الله وابن صفيه»^(١).

بشارة وفر الله أسبابها بحلم الملك (الريان بن الوليد) حينما رأى في منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات هزال، ورأى بجانبها سبع خضر وسبع سنبلات يابسات، وقد توجس الملك خيفة من هذه الرؤيا

وتوقع الشر ولعل تاريخ مصر يشير مثل هذه المخاوف والهواجس.

كانت مصر مهبط مآسي عظيمة «حيث كانت عرضة للمجاعات وفترات من تدهور الإنتاج الزراعي والحيواني على مر العصور وكان ذلك في أغلب الأحيان من آثار اضطراب النيل وامتناع فيضه وإخلاله بالوفاء كما تعود وتعود منه الناس كل عام، فإذا تدهور وأقام على نقائصه لم تكدمياه لتصل إلى الأرض التي تتحرق شوقاً إليه وتنتظر العام كله أو جلّه للقاءه فعندئذ فلا ري ولا استنبات ثم لا زرع ولا ضرع، ويقدم التاريخ أمثلة كثيرة لانخفاض النيل في مصر قبل وبعد عصر يوسف الصديق ما ينتج عن ذلك من كوارث اقتصادية ومن أشهر الأمثلة ما حدث على أيام الثورة الاجتماعية الأولى (الأسرات ٧-١١) يقول نفرتي: لقد جف نيل مصر حتى ليخوضه الناس بالقدم.

وفي مدينة الكاب مقابل البصيلية عبر النهر نرى أميرها (بي) من الأسرة الثالثة عشرة التي سبقت قليلاً عصر الصديق وربما عاصرت أوائله من أيام الهكسوس يقول: لقد كنت أكدح القمح الجيد المطلوب وكنت يقطاً في فصل البذر، فلما وقعت المجاعة على مدى الكثير من السنين أعطيت مدينتي القمح في كل مجاعة^(١).

جاء الملك بكبار أصحابه يستفسرهم عن رؤياه فقالوا: «إنها أحلام مختلطة ببعضها ولسنا بعالمين بها».

رأى صاحب يوسف عليه السلام ورفيقه في السجن اهتمام الملك

(١) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج ٢، ص ٧٢.

وقلقه بما رأى، تذكر يوسف عليه السلام فطلب الإرسال إلى يوسف عليه السلام طلباً في تفسير الرؤيا، فكان في سرعته كمن ركب ذنب الريح فقال يوسف مرتلاً كلامه متأنياً: «إن أمامكم سبع مواسم خيرة تعقبها سبع مواسم شحيحة حيث تأكل السنين السبع التالية ما كانت في السنين السابقة من نعمه، أما السنة الأخيرة فهي سنة يُغاث فيها الناس».

ثم أعطى عليه السلام الخطة المناسبة في مواجهة الظروف القاسية المقبلة قائلاً: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾^(١) فالقمح يسان من السوس والرطوبة ما دام في سنبله، أما الذي يُراد أكله فيُداس مع مراعاة الاقتصاد والاكتفاء بما يسد الحاجة.

عرف الملك مبلغ علم يوسف عليه السلام ورحب فهمه، فأرسل رسوله لإحضاره، وكانت المفاجأة حين قال يوسف للرسول وهو ربيط الجأش: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾^(٢).

«رفض الصديق أن يخرج من السجن بالعفو والتفضل وأصر على إعلان الحق قبل كل شيء، وصمم أن يصبر على السجن وألمه مدى الحياة أو يخرج منه مرفوع الرأس مُبرأ من كل تهمة، فهو واثق من براءته ومطمئن بأن التحقيق سيكون في مصلحته وأن عدم الإسراع في

(١) سورة يوسف، الآية ٤٧.

(٢) سورة يوسف، الآية ٥٠.

الخروج من السجن ادعى إلى ثقة الناس واستجابتهم لرسالته»^(١).

أعاد الملك ملف القضية، ورصّن التهمة وحققها، حتى اعترفت النسوة وامرأة العزيز بأنهن هن اللاتي راودنه.

ازداد شعور الملك بصعوبة الظروف القاسية القادمة، وأنه بحاجة لرجل أمين حكيم، وأن يوسف عليه السلام هو الشخص المناسب، وفي المكان المناسب، وقد زادت قناعته حينما قابل يوسف، وازداد إعجاباً به وب عقله، فأقعد يوسف عليه السلام على رفرفة وسائد بين يديه قائلاً له: «اقصص رؤياي فإني أريد أن أسمعها منك» فذكرها يوسف عليه السلام كما رأى وفسره، فقال الملك: صدقت.

وأردف قائلاً وكأنه يشير إلى يوسف عليه السلام: فمن لي بجمع ذلك وحفظه، قال يوسف: إن الله تعالى أوحى إليّ أنني مدبره والقيم به في تلك السنين.... ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

وهكذا بدأ عمله وفق نظرية اقتصادية مفادها المحافظة على الثروات الحاضرة للمستقبل، فعمل على تنشيط الحركة الاقتصادية وبناء المخازن للحبوب والطعام. وما إن جاءت السماء بالأمطار الغزيرة وزادت الأرض في النبات والزرع وتضاعف الثمر في الشجر والزرع والنبات، وزاد النتاج في الدواب وعم الخصب والرخاء وتضخمت الثروات، قام بشراء مساحات واسعة من الأراضي والبقاع وزرعها

(١) تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٢٤.

(٢) سورة يوسف، الآية ٥٥.

بالمواد الغذائية كالحنطة والشعير والرز والسمسم والعدس، وأمر الفلاحين أن يهتموا بمزارعهم، وأخذ يدفع الناس على الزرع والإنتاج فأخذ يشتري من الزّراع وأهل الحقول منتجاتهم ومحصولاتهم بأموال الدولة، وأمر ببناء الأنابير والأهراء فكان يوجه للأسواق من الطعام ما تحتاجه البلاد ويكنز الباقي بسنابله في الأنابير ليكون الحب آمناً في سنابله من التسوس والفساد.

ثم أقبلت السنون الجدبة، فأقبل يوسف عليه السلام على بيع الطعام فباعهم في السنة الأولى بالدرهم والدنانير حتى لم يبق بمصر وما حولها دينار ولا درهم إلا صار في مملكة يوسف عليه السلام وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق بمصر وما حولها حلي ولا جواهر إلا صار في مملكته، وباعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشي حتى لم يبق بمصر وما حولها دابة ولا ماشية إلا صارت في مملكة يوسف وباعهم في السنة الخامسة بالدور والعقار حتى لم يبق بمصر وما حولها عقار إلا صار في مملكة يوسف، وباعهم في السنة السادسة بالمزارع والأنهار حتى لم يبق بمصر وما حولها نهر ولا مزرعة إلا صار في مملكة يوسف وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا حر إلا صار في مملكة يوسف وصاروا عبيداً له.

فقال يوسف للملك: ما ترى فيما خوّني ربي؟ قال: الرأي رأيك، قال: إني أشهد الله وأشهدك أيها الملك أنني أعتقت أهل مصر كلهم، ورددت عليهم أموالهم وعبيدهم ورددت عليك خاتمك وسريرك وتاجك على أن لا تسير إلا بسيرتي ولا تحكم إلا بحكمي فالله أنجاهم

عليّ، فقال الملك: إن ذلك لديني وفخري، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنتك لرسوله^(١).

وقد عاش يوسف عليه السلام في هذه السنوات حياة الفقراء رغم أن بيده صولجان الملك، وكان يقال له: تجوع وبيدك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجياع.

(١) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٩١.

الأحلام الظاهرة... الموقف

مع كل تحول عظيم في حياة يوسف عليه السلام تكون البداية بحلم، ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(١)، ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢)، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾، مما أصبغ على القصة بعداً مؤثراً للدور الذي تظهره الأحلام في التعبير عن مشاعر الشخص، بل وعلى وتيرة الأحداث وتعقبها، حتى انعكست خطورته على الحقل الاقتصادي الذي انطوى عليه الحلم، في بلد كان على أبواب كارثة اقتصادية محققة، ولذا كان من المهم التحدث عن ظاهرة الأحلام، وبالخصوص التنبؤية منها.

(١) سورة يوسف، الآية ٤.

(٢) سورة يوسف، الآية ٣٦.

دور الأحلام

أ- كشف بعض معالم الشخصية وما يتعلق بجوانب من حياة الإنسان، وقد كان (فرويد) من رواد هذا الأسلوب، فالحلم عنده وسيلة لمعرفة النفس، حيث هو نشاط نفسي ينطوي على معنى ومغزى ويخدم غرضاً في الحياة النفسية كما يرى أن الأحلام لا تكشف عن المستقبل بل عن متاعب ومصراعات نفسية يعانيتها النائم في الوقت الحاضر، كما أنها تلقي الضوء على رغباته المكبوتة منذ الطفولة المبكرة^(١).

ب- حراسة النوم، مما يحتمل أن يزعجه من مؤثرات خارجية الأصوات (درجة الحرارة، آلام عضوية) فالحلم خير معين للنائم على أن ينام، فإذا شعر النائم بالجوع والعطش رأى في نومه أنه يأكل ويشرب. مما يتيح له أن يستمر في نومه دون حاجة إلى أن يستيقظ ليأكل أو يشرب^(٢).

في تجربة مثيرة قام (وليام ديمنت) بمستشفى بنيويورك بالفصل بين النوم والحلم، بإيقاظ الفرد عند بدئه في الحلم، كما يبدو من حركات العين السريعة، حتى اضطر العالم إلى إيقاف التجربة مع أحد المتطوعين في الليلة الرابعة عشرة لأنه حدث تغير درامي مفاجئ في شخصية المفحوص.

فبعد أن كان أميل إلى الصمت وذا مثل أخلاقية عالية أصبح فجأة

(١) أصول علم النفس، أحمد عزت راجح، ص ١٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٣.

مفلوت العيار ثرثاراً مهذاراً، وقال هو عن نفسه لقد أصبحت طليقاً خالياً من الهموم بشكل غريب، لا أهتم البتة بما يعتقدونه الآخرون وكنت مستعداً لأن أجرب كل شيء.

وقد أظهرت لدى خمسة من المفحوصين زيادة واضحة في الشهية إلى الطعام وظهر لدى أحد المفحوصين مظاهر قلق وتهيج واضح وقد اختفت هذه التغيرات بعد إيقاف التجارب^(١).

طبيعة الأحلام

هناك نظرتان للحلم، إحداهما ترجع الأحلام كرؤى إلهية وتجسدها كتعبير عن القدر، وعن الإيديولوجية الدينية السائدة في الأمة والثقافة التي تميزها، والأخرى نظرة عقلانية تعامل الأحلام كرؤى خاصة بالأفراد وصنفها كأنماط ويعمل فيها الرأي والاجتهاد بخلفية فلسفية، والنظرتان موجودتان في الثقافة العربية.

فابن سيرين يقسم الأحلام إلى قسمين، فقسم من الله، وقسم من الشيطان، ويطلق على الحلم من القسم الأول اسم الرؤيا الصالحة وينسب إلى القسم الثاني أن بعضها أحلام فيسولوجية مصدرها الجسم، وما يصيبه من امتلاء بالطعام أو خلوه منه، فالجائع يحلم بالخبز، والمحروم جنسياً يحلم بمضاجعة الحسان وبعضها أحلام نفسية فيها الآمال والمخاوف والأحزان^(٢).

(١) أشهر الأحلام في التاريخ، ممدوح الشيخ، ص ٨٦.

(٢) التحليل النفسي للأحلام، ص ١١.

لذا فإن الحُلُم قد يكون صادقاً وأخرى كاذباً، الأول منه والثاني تخيل ناشئ في الغالب من سوء الهضم واضطرابات جسمية أو هلوسات الحمى من احتياج خلايا معينة في المخ، عن الصادق عليه السلام: «الرؤيا على ثلاثة وجوه بشارة من الله للمؤمن وتحذير من الشيطان وأضغاث أحلام»^(١). وفي الحديث: «إذا كان العبد على معصية الله عز وجل وأراد الله به خيراً أراه في منامه رؤيا تروعه فينزجر بها عن تلك المعصية»^(٢).

عن محمد بن يعقوب، عن إسماعيل بن عبد الله القرشي أن رجلاً قال لأبي عبد الله عليه السلام: رأيت في منامي كأن شبحاً من خشب أو رجلاً منحوتاً من خشب على فرس من خشب يلوح بسيفه وأنا شاهده فزعا مرعوباً، فقال عليه السلام: أنت رجل تريد اغتيال رجل في معيشته، فاتق الله الذي خلقك ثم يميئك. فقال الرجل، أشهد أنك قد أوتيت علماً واستنبطته من معدنه، إن رجلاً من جيراني عرض ضيعته علي فهممت أن أملكها بوكس كثير لما علمت أنه ليس لها طالب غيري^(٣).

جاء رجل لعلي بن الحسين قائلاً: «رأيت كأنني أبول في يدي، قال: تحتك محرم، فنظروا فإذا بينه وبين امرأته رضاع»^(٤).

(١) الكافي - الشيخ الكليني، ج ٨، ص ٩٠.

(٢) الاختصاص، الشيخ المفيد، ص ٢٤١.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي - ج ١٧ - ص ٤٤٩.

(٤) المستطرف - للأبشي، ج ٢، ص ١٩٦.

الأحلام التنبؤية

هناك نوع من الرؤيا تكشف الستار عن المستقبل، ولعل كثرة الشواهد تكشف بلا ريب عن وجودها، ونكرانها كما صنع فرويد مكابرة ومحصول كلامه أن تلك الأحلام امتداد طبيعي لأحداث سابقة مثل حلم أحدهم بإجراء عملية جراحية لاستخراج حصاة من كليته، وكان في ذلك الوقت لا يشكو من شيء غير أن الألم الطفيف الذي لا يحس به الشخص في حالة اليقظة قد يبرز في الحلم، حتى إذا مضت الأيام كبرت الحصاة بما اقتضى عليه^(١).

وفي التاريخ الإسلامي ينقل أن عبدالمطلب رأى رؤيا في بشارة النبي ﷺ حيث رأى شجرة قد نبتت على ظهره قد نال رأسها السماء وضربت بأغصانها الشرق والغرب، وأن نوراً يزهر منها أعظم من نور الشمس، وأن العرب والعجم ساجدة لها وهي كل يوم تزداد عظماً ونوراً. وإن رهطاً من قريش يريدون قطعها فإذا دنوا منها يأخذهم شاب من أحسن الناس وجهاً ويكسر ظهورهم ويقلع أعينهم.

فقالت الكاهنة: لئن صدقت ليخرجن من صلبك ولد يملك الشرق والغرب وينبأ في الناس^(٢).

وجاءت أم أيمن للرسول ﷺ قائلة: يا رسول الله رأيت في ليلتي هذه كأن بعض أعضائك ملقى في بيتي؟ فقال رسول الله ﷺ:

(١) أصول علم النفس، ص ١٢٦.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦١، ص ١٧١.

تلد فاطمة الحسين فتربينه وتلفينه فيكون بعض أعضائي في بيتك^(١).

وأما في الغرب فهذا رئيس الولايات المتحدة (إبراهيم لنكولن) محرر العبيد في الولايات الجنوبية دعا بعض الأصدقاء للعشاء في البيت الأبيض مساء ٢٣ آذار سنة ١٨٦٥ م ولكن الرئيس في تلك الليلة ظل صامتاً على غير عادته، ثم أخذ يقص على زائريه وهو بحالة اضطراب ظاهرة أنه منذ يومين تابع العمل حتى وقت متأخر ونام منهوكة من التعب فرأى أثناء النوم إذ ساد المكان سكون محزن يتخلله البكاء وقام إلى غرفة الاجتماعات حتى وصل إلى غرفة رأى من نوافذها بعض الجنود يحرسون ميتاً حوله أشخاص يبكون وسأل عن الميت فأجابه أنه الرئيس قد اغتالوه.

ورغم ما بذله أصدقاؤه من جهة في تهدئة روعه وتذكيره بأن ما يراه الإنسان أثناء رقاده يسمى أضغاث أحلام، فقد بقي مضطرباً وانصرف الضيوف باكراً، وبتاريخ ١٤ نيسان ١٨٦٥ أي بعد مرور نحو ثلاثة أسابيع توجه الرئيس مع زوجته إلى أحد المسارح لحضور تمثيلية وجلس معها في مقصورة الرئاسة محروساً بالشرطة السرية، وما أن فتح الستار وبدأ التمثيل حتى دوت صوت طلق ناري فأردي قتيلاً^(٢).

يقول العالم الفلكي (كميل فلاماركون) في كتابه المجهول المنشور في سنة ١٨٩٩ م أنه لا يتردد في قبول صحة حوادث ظهور

(١) المصدر السابق.

(٢) عالم غير منظور خارج القواعد العلمية، ص ١٣.

المستقبل بواسطة الأحلام^(١).

نشرت جمعية الأبحاث النفسية خبراً يقول أن السيد (كونغور) أراد السفر إلى نيويورك لأعمال تجارية وكان في سنة ١٩١٢ فحجز في لندن بتاريخ ٢٣ آذار، حجرة على ظهر الباخرة الفخمة (تيتانيلو) التي ستقوم بأول رحلة لها إلى أمريكا وقبل السفر بعشرة أيام تقريباً رأى في الحلم أن الباخرة تغرق وأن المسافرين يرمون بأنفسهم في البحر طمعاً بالنجاة، وفي اليوم التالي رأى في الحلم المشهد نفسه ولكنه كتم الأمر، وفي اليوم الثاني أ برق إليه عملائه الأمريكيين بتأخير سفره وألغى معاملة حجز الحجرة، وأخبر أصدقاءه بما شاهده في الحلم وقد رووا ما قاله لهم لجمعية الأبحاث النفسية وبعد أربعة أيام من تاريخ سفر الباخرة ذاع خبر غرق تلك الباخرة^(٢).

الموقف السليم

الحلم قد يكون مرتبطاً بالرأي نفسه، قد يكون أضغاث أحلام فعند ذلك يسقط اعتباره حتى من الجهة النفسية، وعدم الالتفات إلى مصدرها، ولذا روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «إذا رأى الرجل ما يكره في منامه فليتحول عن شقه الذي كان عليه نائماً وليقرأ ألا إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله، ثم ليقل عذت بما عاذت به ملائكة الله المقربون وأنبياءه المرسلون

(١) المصدر السابق، ص ٩٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٩.

وعباده الصالحون من شر ما رأيت ومن شر الشيطان الرجيم»^(١).

وإن كان الحلم صادقاً فإن كان خيراً استبشر به وإن دون ذلك التجأ بالله، وهنا نشير إلى أن الحلم الواحد لا يعني شيئاً واحداً إن رآه شخصان مختلفان، مثلاً لو رأى شخصان كلباً، فالحلم يختلف باختلافهما فإن كان الأول يعمل راعياً، فالكلب بالنسبة إليه حيوان أليف يتميز بالوفاء، وإن كان الثاني يعمل في المدينة، فالكلب في نظره حيوان مزعج، ولا يصدر عنه إلا العض والنباح، فحلم الأول ظاهرة حسنة، وللشخص الثاني ظاهرة سيئة تدل على ضرر^(٢).

أما الأحلام المرتبطة بجوانب اجتماعية، كأن يرى المرء فلاناً يحطب به سعيًا في تحطيمه، فخلق بالمرء ألا يقيم لها في الخارج أثراً، قد يكون الحذر من حقه، ولكن من دون إعلان عداوة لمجرد رآه يفعل في الرؤيا كذا وكذا.. وفي رؤيا يوسف عليه السلام شعر أبوه يعقوب عليه السلام بخطر محقق بابه، ولكن لم يترك ذلك الحلم بصماته اجتماعياً فلم يعزل يعقوب عليه السلام يوسف عليه السلام عن أخوته الآخرين، بالرغم ما حك في صدره من الحلم، فخلق ألا تأخذ الأحلام بُعداً هداماً في العلاقات الاجتماعية.

جاء رجل إلى ابن سيرين قائلاً له: رأيت في المنام ديكاً قد دخل إلى منزلي وقطف حبات شعير، فقال ابن سيرين: إذا سرق من بيتك شيء فراجعني، وبعد أيام رجع وقال: لقد سرق سجاد من بيتي، فقال

(١) مفتاح الفلاح - البهائي، ص ٢٢٢.

(٢) علم النفس الإسلامي، ص ٨٥.

ابن سيرين: لقد سرقة المؤذن، فذهب وتنازع معه حتى استرد ماله.

ولنتصور لو أن صاحب السجادة قد نازع المؤذن قبل سرقة السجاد ماذا كان يمكن أن يحدث!!

ومن البديهي أن يكون للشخصية ومكوناتها والأحداث التي تمر بها تأثير على الأحلام غير أن القليلين الذين تحدثوا في تأثير الأحلام على سلوكياتنا ومن الذين أفاضوا في هذا التأثير جماعة العلماء النفسانيين الذين لهم اهتمامات ثقافية أنثروبولوجية ففضلاً عن أن الأحلام تجعل الحالم مر بمزاج معين بعد أن يصحو من نومه فيتوجه لأفعال معينة أو يفكر بطريقة خاصة كأن يحذر أحد الناس أو يحاذر فيما يسلك^(١).

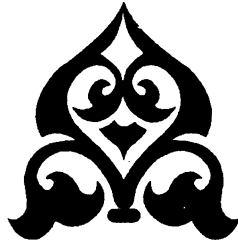
أما الأحلام التي يراها الحالم، وهي تحدد الحق وتميز الباطل، وأن فلاناً على الحق ومنافسه على الباطل، فهل الأحلام تستطيع أن تعطي رؤية في تحديد الحق من الباطل؟

هناك من يحاول الاستخفاف بعقول الناس، فيسطر صفحات، وينتصر لنفسه ومعتقده من خلال ادعاء رؤيا حق كقول بعضهم في بعض مؤلفاته: كنت في بدايتي منكراً لأحوال الصالحين ومقامات العارفين حتى حظيت بالواردات فرأيت الله تعالى في المنام، فقال لي: يا أبا حامد، قلت: أو الشيطان يكلمني، قال: لا بل، أنا الله المحيط بجهاتك الست، ثم قال: يا أبا حامد ذر أساطيرك وعليك بصحبة أقوام

(١) التحليل النفسي للأحلام، د عبد المنعم الحفني، ص ١٣.

جعلتهم في أرضي محل نظري، وهم أقوام باعوا الدارين بحبي فقلت: بعزتك أذقتني برد حسن الظن بهم، فقال: قد فعلت ذلك، والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا، فاخرج منها مختاراً قبل أن تخرج منها صاغراً فقد أمضيت عليك نوراً من أنوار قدسي، فقم وقل.

قال: فاستيقظت فرحاً مسروراً، وجئت إلى شيخي، فقصصت عليه المنام، فتبسم وقال: هذه ألواحنا في البداية فمحوناها، بلى إن صحبتني سأكمل بصر بصيرتك بأئمة التأييد حتى ترى العرش ومن حوله ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد ما لا تدركه الأبصار فتصفو من كدر طبيعتك وترتقي على طور عقلك وتسمع الخطاب من الله تعالى كما قال لموسى أنا الله رب العالمين^(١).



موسى الكليم عَلَيْهِ السَّلَامُ

محرر بني إسرائيل

تمهيد

يمكن تقسيم حياة الكليم موسى ﷺ إلى مرحلتين، الأولى كانت إبان الحكم الفرعوني، وقد كان من أهم سمات تلك الحقبة الخوف من البطش الفرعوني، كان فيها ﷺ شولاً، فعَلَ فعل الضراغم في جرأتها، فكان يرد العادية ويتنصر للضعفاء حتى عاش أوقاتاً عصيبة، وأصبحت حياته مهددة، ومع ذلك لم يفكر لحظة أن يترك جهاده، فحقاً رجل مِدود، دفاع عن الذمار.

أما المرحلة الثانية فكانت ما بعد الحقبة الفرعونية، عمل خلالها على إعادة الثقة بالذات لقومه، والعودة بهم إلى حظيرة الإيمان، وقد قاسى من قومه الكثير، فقد آذوه بعنادهم واتهامهم حتى رموه بالمرآج، وهو مع ذلك ربيط الجأش ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾^(١).

وباختصار قاوم موسى ﷺ الفراعنة، والمتفرعين الذين كانوا ثمرة العصا والثقافة الفرعونية.

وأشرق فجر خلاص بني إسرائيل

قدم إخوة يوسف من كنعان (فلسطين) بسبب جذب أصابها، فوجدوا في أخيهام ضيافة كريمة، واختار لهم يوسف أرض جوشن في وادي طميلات، لأنهم رعاة أغنام وهي أرض مراعى^(١)، وبعد وفاة يوسف ﷺ فقدوا قائدهم وتشردوا في ظل أوضاع جوار سيئة مع المصريين، حيث كان المصريون ينظرون نظرة متعالية على الإسرائيليين، حيث يعتبرون أنفسهم أصحاب حضارة وأنهم هم الناس، والإسرائيليون رعاة وكل راعي غنم هو رجس^(٢).

وزاد العامل الديني الهوة التي تفصل بينهما حيث كانت للمصريين معبوداتهم من الأصنام، فكانت معابدهم وقصورهم وبيوتهم مليئة بالأصنام من كل نوع وحجم، والإسرائيليون لم يشاركوهم عبادة آلتههم^(٣).

(١) دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ج ٢، ص ١٣٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) قصة الديانات، ص ٣٠٤.

فارتبط بنو إسرائيل بالهكسوس حكام مصر الغزاة الغرباء، وكانوا يقدمون لهم الخدمات في مجال التجسس^(١) مما جعل المصريين ينقمون عليهم بعد ثورة التحرير وطردهم الهكسوس، ويعتقد البعض أن عدم ثقة المصريين بهم لخشيتهم من أن يكونوا حرباً عليهم إن طمع فيهم غاز.

ومن أقوى الأسباب التي تخيف منهم أمة متحضرة وملكاً مهيباً كفرعون هو انعدام ولائهم للبلاد التي يعيشون فيها واستعدادهم للانضمام إلى أعدائها وشن الحرب عليها حتى وقع في خلد فرعون وآله أنهم طابور خامس^(٢).

وفي ذات يوم استدعى فرعون كهنته وسحرته وحكماءه وسألهم عما يفعله بالعبريين قبل أن يزداد عددهم ويستفحل خطرهم على البلاد، قال الحكماء لفرعون: إن العبيد لا يفكرون لأنفسهم بل هم يفكرون في العادة تفكير سادتهم، وإذا نحن أسرنا اليهود واستعبدناهم فإنهم سيجدون أنفسهم يفكرون كما نفكر ويعتقدون كما نعتقد.

فأخذ الملك بالنصيحة وتحقق بالفعل ما أشار به الحكماء إذ طالما تم استعباد العبريين وأخذوا بالتدريج يتحولون عن عقيدتهم ويفكرون بالطريقة التي يفكر بها المصريون ويعبدون الآلهة والأصنام التي عبدها المصريون^(٣).

(١) دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ج ٢، ص ١٣٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٣.

(٣) قصة الأديان، ص ٣٠٤.

وتفاقت معاناة بني إسرائيل حين أخبر أهل الكهانة والنجوم والسحر فرعون أن مولوداً سيولد ويزيل ملكه، ويحدث ببلاد مصر أموراً عظيمة^(١) فأمر بوضع القوابل على النساء، فما أن تضع امرأة ذات بطنها الذكر حتى يذبح.

فانكفأ بنو إسرائيل على أنفسهم، وصاروا يجتمعون بينهم وبين أكابرهم يتدارسون وقت خروج المنقذ وهم يتذكرون وصية يوسف ﷺ حين حضرته الوفاة جامعاً آل يعقوب وهم ثمانون رجلاً: «إن هؤلاء القبط سيظهرون عليكم ويسومونكم سوء العذاب وإنما ينجيكم الله من أيديهم برجل من ولد لاوي بن يعقوب، اسمه موسى بن عمران»^(٢).

واكتفوا بذلك ولم يتطلعوا إلى القيم الرسالية التي رفعتهم في عهد يوسف ﷺ ولم يقوموا بأي دور حيوي لمواجهة الطغيان الفرعوني فهم يعيشون في انتظار الرسول وفي ذات الوقت يفلتون من القيم الرسالية حتى تخلوا تماماً عن الرسالة^(٣).

صار بنو إسرائيل عبدة لفرعون وانخرطوا في عبادة الأصنام وفرعون وارتسموا مراسمه، حتى أشرق فجر ولادة المخلص بعد أربعمئة سنة من وفاة يوسف، حيث أراد الله إنقاذ بني إسرائيل من خلال خلق قائد رسالي رعاه منذ الطفولة، يكون على يديه وجهود

(١) الأنبياء، حياتهم - قصصهم، ص ٢٥٤.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٣٧.

(٣) دراسات ثقافية، مجلة الشهيد، عدد ١٤٨.

المؤمنين تحطيم أسطورة فرعون، وهكذا إرادة الله لا تتحقق من خلال العوامل الغيبية فقط وإنما على أيدي المؤمنين أنفسهم وقبلهم قيادتهم وإمامهم^(١).

ولعل أعظم حدث ارتبط بولادة هذا المخلص هو التقاط فرعون له، فهل هناك سر يكمن خلف التقاط فرعون التابوت، مع إمكان اختيار جبلاً - مثلاً - يأوي إليه موسى برعاية أحد بني إسرائيل الذين يتحرقون شوقاً للقاء موسى؟!

إن في هذا لسر عظيم، وقد حاول بعضهم الإجابة على هذا التساؤل، أذكر ما ارتضيته:

١ - الظفر ببطاقة أمن، وفي ذات الوقت الظفر برعاية أمه.

٢ - سوف يفتح موسى عينه على حقيقة أولئك الذين يلتفون حول فرعون ويمدونه بأسباب القوة والجبروت.

٣ - حين يرى الناس موسى ﷺ الذي عاش في قصر فرعون مع ما يوفره من ظروف ممتازة قد ثار على فرعون وقفز على مصالحه الذاتية ووضع نفسه في مقابلة فرعون مع ما يسببه ذلك من مشاكل يجعلهم ذلك أقرب إلى التعامل مع الرسول بصيغة أخلاقية صرفة.

٤ - إظهار وعيد الله وعظمته، وفرعون الذي راح سنوات طويلة من عمره يذبح ذكور بني إسرائيل ويحصي على الكبار أنفاسهم ويذلهم

(١) من هدى القرآن، ج ٩، ص ٢٥٨.

هذا الفرعون نفسه يربي موسى بيده ويسهر على حمايته، إن التقاط موسى ﷺ من البحر وتربيته من قبل آل فرعون ليعكس بشدة أن مكر الله فوق مكر الكافرين، وأن كيد الله فوق كيدهم^(١).

ونذكر هنا أن الوثائق المعاصرة لموسى ﷺ مفقودة، ومع هذا فإن ذلك لم يمنع الكثير من الإيمان بوجود مثل هذا القائد، يقول لودز: «لا يسعنا التهرب من الاعتقاد بأنه لا بد وأن تكون قد برزت خلال التقليد الطويل شخصية قوية تولت الزعامة، لأننا حين نرتفع إلى مستوى عالٍ في مجرى التكوين الحضاري نجد أن العوامل الأساسية التي تؤثر في الحياة الدينية عند الشعوب لا تقوم إلا على يد شخصيات قوية ذات مواهب خارقة هي التي تقرر مصير الدعوة التي تنطوي عليها هذه العوامل.. إن موسى يمثل رمزاً أسطورياً، ولكن هناك وراء هذا الرمز الأسطوري حقيقة واقعية هي أن هناك شخصية قوية برزت على أثر الاضطهاد المصري»^(٢).

وتفصيل الأحداث التي رافقت ولادة هذا المخلص، نتركه لأهل الذكر فهم أعرف به من أي أحد كان، عن أبي بصير، عن أبي جعفر ﷺ أنه قال: ما خرج موسى حتى خرج قبله خمسون كذاباً من بني إسرائيل كلهم يدعي أنه موسى بن عمران، فبلغ فرعون أنهم يرجفون به، ويطلبون هذا الغلام، وقال له كهنته وسحرة: إن هلاك دينك وقومك على يدي هذا الغلام الذي يولد العام في بني إسرائيل، فوضع القوابل

(١) دراسات ثقافية، مجلة الشهيد، عدد ١٤٨.

(٢) العرب واليهود في التاريخ، ص ٥٩٢.

على النساء وقال: لا يولد العام غلام إلا ذبح، ووضع على أم موسى قابلة، فلما رأى ذلك بنو إسرائيل قالوا: إذا ذبح الغلمان واستحيى النساء هلكننا فلم نبق، فتعالوا لا تقرب النساء، فقال عمران أبو موسى: بل باشروهن فإن أمر الله واقع ولو كره المشركون، اللهم من حرمه فإني لا أحرمه، ومن تركه فإني لا أتركه.

وباشر أم موسى فحملت به، فوضع على أم موسى قابلة تحرسها، فإذا قامت قامت وإذا قعدت قعدت، فلما حملته أمه وقعت عليها المحبة، وكذلك حجج الله على خلقه، فقالت لها القابلة: مالك يا بنية تصفرين وتذوبين؟ قالت: لا تلوميني فإني إذا ولدت أخذ ولدي فذبح، قالت: فلا تحزني فإني سوف أكرم عليك، فلم تصدقها.

فلما أن ولدت التفتت إليها وهي مقبلة فقالت ما شاء الله، فقالت لها: ألم أقل: إني سوف أكرم عليك، ثم حملته فأدخلته المخدع وأصلحت أمره.

ثم خرجت إلى الحرس فقالت: انصرفوا - وكانوا على الباب - فإنه خرج دم منقطع، فانصرفوا فأرضعته، فلما خافت عليه الصوت أوحى الله إليها: اعملي التابوت ثم اجعليه فيه، ثم أخرجيه ليلاً فاطرحيه في نيل مصر، فوضعته في التابوت ثم دفعته في اليم، فجعل يرجع إليها وجعلت تدفعه في الغمر وإن الريح ضربته فانطلقت به، فلما رآته قد ذهب به الماء همت أن تصيح فربط الله على قلبها.

قال: وكانت المرأة الصالحة امرأة فرعون من بني إسرائيل قالت

لفرعون: إنها أيام الربيع فأخرجني واضرب لي قبة على شط النيل حتى أتتزه هذه الأيام، فضرب لها قبة على شط النيل إذ أقبل التابوت يريدھا، فقالت: ما ترون ما أرى على الماء؟ قالوا: إي والله يا سيدتنا إنا لنرى شيئاً، فلما دنا منها قامت إلى الماء فتناولته بيدها، وكاد الماء يغمرها حتى تصايحوا عليها فجذبته فأخرجته من الماء فأخذته فوضعتھ في حجرها فإذا غلام أجمل الناس وأسرهم فوقعت عليه منها محبة فوضعتھ في حجرها، وقالت: هذا ابني، فقالوا: إي والله أي سيدتنا مالك ولد ولا للملك فاتخذي هذا ولداً.

فقامت إلى فرعون فقالت: إني أصبت غلاماً طيباً حلوا نتخذه ولداً فيكون قرة عين لي ولك فلا تقتله، قال: ومن أين هذا الغلام؟ قالت: لا والله ما أدري إلا أن الماء جاء به، فلم تزل به حتى رضي، فلما سمع الناس أن الملك قد بنى ابناً لم يبق أحد من رؤوس من كان مع فرعون إلا بعث إليه امرأته لتكون له ظئراً أو تحضنه، فأبى أن يأخذ من امرأة منهن ثدياً، قالت امرأة فرعون: اطلبوا لابني ظئراً ولا تحقروا أحداً، فجعل لا يقبل من امرأة منهن.

فقالت أم موسى لأختھ: قصيه، انظري أترين له أثراً، فانطلقت حتى أتت باب الملك، فقالت: قد بلغني أنكم تطلبون ظئراً وههنا امرأة صالحة تأخذ ولدكم وتكفله لكم، فقالت: أدخلوها، فلما دخلت قالت لها امرأة فرعون: ممن أنت؟ قالت: من بني إسرائيل، قالت: اذهبي يا بنية فليس لنا فيك حاجة، فقال لها النساء: عافاك الله انظري هل يقبل أو لا يقبل، فقالت امرأة فرعون: أرأيتم لو قبل هل يرضى فرعون أن يكون

الغلام من بني إسرائيل والمرأة من بني إسرائيل؟ - يعني الظئر - لا يرضى.

قلن: فانظري يقبل أو لا يقبل، قالت امرأة فرعون: فاذهبي فادعيها، فجاءت إلى أمها فقالت: إن امرأة الملك تدعوك، فدخلت عليها فدفع إليها موسى فوضعه في حجرها ثم ألجمته ثديها، فإذا قحم اللبن في حلقه، فلما رأت امرأة فرعون أن ابنها قد قبل قامت إلى فرعون فقالت: إني قد أصبت لابني ظئرا وقد قبل منها، فقال: وممن هي؟ قالت: من بني إسرائيل، قال فرعون: هذا مما لا يكون أبدا، الغلام من بني إسرائيل والظئر من بني إسرائيل!

فلم تزل تكلمه فيه وتقول: ما تخاف من هذا الغلام، إنما هو ابنك ينشأ في حجرك حتى قلبته عن رأيه ورضي^(١).

موسى بين (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) و (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا)

من المدهش إننا لا نمتلك معلومات عن طفولة موسى وشرح شبابه، إلا أن هناك إشارات تعطي انطباعاً عن حياته، فيقول السيد قطب في سياق قصة موسى ﷺ في القرآن الكريم «إنما يسكت عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى ﷺ والحلقة التالية التي تمثل شبابه واكتماله فلا نعلم ماذا كان بعد رده إلى أمه لترضعه، ولا كيف تربى في قصر فرعون، ولا كيف كانت صلته بأمه بعد فترة الرضاعة، ولا كيف كان مكانه في القصر أو خارجه بعد أن شبَّ وكبر»^(١).

ويعتقد البعض أن موسى ﷺ تلقى تربية متميزة في بيت فرعون حيث حشدت له كل الإمكانيات بما فيها من صنوف الأبهة والجمال، وخدم من كل نوع وجوار وعبيد هنا وهناك^(٢). وتولى البلاط الفرعوني تربيته كما كانوا يربون أبناء الملوك في ذلك العهد بواسطة الكهنة ورجال

(١) دراسات تاريخية عن القرآن الكريم، ج ٥، ص ١٦٨.

(٢) حياة موسى، ص ٦٨.

الدين بحسب التقاليد التي كانت لذلك البيت في تلك الأيام^(١).

ولعل هذا التصور يصبح منطقياً مع طبع الأشياء ونفسها وسير الأمور وفق مجراها الطبيعي، سوى أننا هنا أمام مفارقة تلخص في أن الأنبياء منذ نعمة أظفارهم لا يتلقون تعليماً دينياً من قبل منحرفي العقيدة، فالحديث عن تعليم الكهنة لموسى عليه السلام يصبح فارغاً لا قيمة له إلا إذا حاولنا البحث عن مخرج لهذه المفارقة، كما عمل بعضهم حيث قال: «كبر موسى في بيت فرعون تعلم الحساب والهندسة والفلك والكيمياء والطبيعة واللغات، كان ينال في حصة الدين لهذا لم يكن يسمع الكلام الفارغ الذي يقوله المدرس عن إلهية فرعون»^(٢).

وأضرب صفحاً عن دعوى تعلم موسى عليه السلام من الكهنة، وأعتقد أن موسى عليه السلام قد تلقى بدل ذلك تعليماً وتدريباً في علوم تعينه كقائد منتظر لشعبه، وذلك لأنه تحت حراسة الله ورعايته **﴿وَلَتُضَنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي﴾** وما فرعون سوى أداة منفذة من حيث لا يدري لإرادة الله.

والذين رسموا صورة عن طفولة موسى عليه السلام بأنها طفولة سعيدة حيث الحياة المرفهة، أعتقد أنهم مخطئون، فموسى عليه السلام قد عاش أصعب أيامه عند فرعون، وذلك لصلافة فرعون في التعامل مع أقرب المقربين إليه.

وفي قصة قبض موسى عليه السلام للحية فرعون مثلاً، حيث طارت

(١) قصص الأنبياء، النجار، ص ١٥٩.

(٢) أنبياء الله، ص ١٨٨.

عصافير رأس فرعون وعزم على قتل موسى ﷺ، عن أبي عبد الله ﷺ قال: ألقى الله تعالى من موسى على فرعون وامرأته المحبة، قال: وكان فرعون طويل اللحية فقبض موسى عليها فجهدوا أن يخلصوها من يد موسى فلم يقدروا على ذلك حتى خلاها فأراد فرعون قتله، فقالت له امرأته: إن هنا امرأ تستبين به هذا الغلام، أدع بجمرة ودينار، فضعهما بين يديه ففعل فأهوى موسى إلى الجمرة ووضع يده عليها فأحرقتها، فلما وجد حر النار وضع يده على لسانه فأصابته لغة^(١).

نعم كانت تنحني لموسى ﷺ في قصر فرعون الرؤوس لتنفيذ ما يريد، ولكن بدون شك أنه كان يعيش رفضاً في داخله لفرعون وآله، فليس هو من دُبرهم ونوعيتهم، وما رُسم لموسى ﷺ من أنه انفعالي الشخصية - على فرض صحته - تعبر عن معاناة عاشها، تجلت في الرفض الحاد لكل ما هو منحرف، وكان يعبر عن ذلك بأسلوبه الخاص.

ويبلغ موسى ﷺ ويصبح شاباً أخضراً غضاً فيفيض الله عليه عطاءً زاخراً ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢) ومن المعلوم أن هذه الآية بنصها وردت في سورة يوسف وصفاً ليوسف ﷺ وبين يوسف وموسى ﷺ تشابه، فالأول تربى بعيداً عن أهله وموطنه، وموسى ﷺ ترعرع بعيداً عن أهله كذلك، ومع بلوغ يوسف ﷺ مرحلة الشباب يتعرض لامتحان

(١) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٤٦.

(٢) سورة القصص، الآية ١٤.

مع امرأة العزيز، وفي ذات المرحلة من العمر يتعرض موسى عليه السلام لاختيار صعب حيث يصبح مطارداً من سلطة فرعون.

ومن هنا أقول، إن مرحلة بلوغ موسى عليه السلام أشده لم تكن مرحلة الرفاهية والاستمتاع بزهر الحياة، بل مرحلة العمل والنشاط في سبيل قضية شعبه، وعمل على إعانة بني قومه حتى جعل له ذلك في القلوب مودة، ولذا أستبعد الرأي القائل بأن موسى عليه السلام قد تولى منصباً وتبوأ مكانه في دولة فرعون^(١).

وكيف كان، يظهر أنه قد اعتزل القصر ولم تسترح نفسه في ظل الأوضاع التي لا تستريح لها نفس مصطفىة مجتابة كنفس موسى وهو يرى كيف يسام قومه الخسف بالشعب والظلم الشنيع والبغي اللثيم^(٢).

فموسى عليه السلام الذي آتته السماء حكماً وعلماً، لا بد أن يظل على غير وفاق مع فرعون، مما يضطره إلى الدخول في صراع يستتبع أن يفارقه لينقذ نفسه من بطش فرعون، وليتابع أداء وظيفته العبادية في حدود إمكاناته له فترتد^(٣).

وهكذا انخرط موسى عليه السلام في درب العمل لإسقاط فرعون، بل وعمل على تأسيس حركة اجتماعية لمقاومة بطش فرعون، وقد كان يجتمع مع شيعته من بني إسرائيل^(٤) حتى اشتهر بصفة المصلح حتى

(١) راجع دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج ٢، ص ١٦٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) دراسات فنية في قصص القرآن، ص ٤٥٢.

(٤) من هدى القرآن، ج ٩، ص ٢٧٨.

قال له الرجل من شيعته حين اتهمه موسى بالفوضوية ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾^(١).

فالذي دعا الرجل لقول ذلك لموسى ﷺ ليس إلا لاشتهاره ﷺ بهذه الصفة. ولعل هذه دلالة من الدلالات التي تشير إلى أن بني إسرائيل كانوا يعتقدون بموسى بن عمران ﷺ الذي عاش في قصر فرعون هو الشخص الذي سينقذهم من فرعون وظلمه^(٢).

وهكذا كان موسى ﷺ قائد بني إسرائيل في معركة المصير، وما كانت تقشعر دائرته، حيث غادر قصر فرعون واتجه إلى المدينة متخفياً، حيث أقحم في صراع مباشر مع قوم فرعون، حين شاهد أحد شيعته يتعرض لاعتداء قبطي، والإسرائيلي يستغيث بموسى ع، فما كان لصاحب القلب الكبير صبر، فعزم بنفسه مقتحماً غير عابئ بأحد معتبراً أن هذه عزيمة من عزمات الله وحق من حقوق الضعفاء، فدفع عادية القبطي بوكزة (الدفع بجمع اليد) تهاوى على أثرها القبطي إلى الأرض دون حراك.

هاج القبط، وتحولت القضية إلى قضية سياسية من أخطر القضايا، كيف يجروا أحد العبيد على قتل أحد السادة^(٣) وشعرت الحكومة أنها أمام ظاهرة خطيرة تعبر عن تمرد وثورة عند بني إسرائيل.

أما موسى ﷺ فأصبح جافل القلب، ويذهب سيد قطب إلى

(١) سورة القصص، الآية ١٩.

(٢) راجع دراسات ثقافية، مجلة الشهيد ٤/ ٩/ ٨٥، العدد ١٥٠.

(٣) حياة موسى، ص ٧٨.

أن لفظ ﴿بَتَرَقُبُ﴾ في القرآن يصور هيئة القَلِق الذي يتلفت ويتوجس ويتوقع الشر في كل لحظة، وهي سمة الشخصية الانفعالية^(١).

وأعتقد أن خوف موسى ﷺ لم يشكل جانباً سلبياً في جهاده، كما يظهر تأثير الخوف عند بعض الناس فيسبب لديهم التأناة والفأفة والخرس، ويمنع الإنسان من تأكيد ذاته، بدليل خروجه من جديد إلى المدينة، حيث يشاهد من استصرخه بالأمس يستغيث به، حتى غضب موسى ﷺ من الإسرائيلي الذي لجّ في جناب قبيح، حيث ينازع في ظرف غير مناسب فهو كالعقرب تحتك بالأفعى، فقال موسى ع: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ وهمّ ﷺ بالبطش بالقبطي، فصرخ الإسرائيلي ظناً أنه هو هدف موسى ع، فقلب لموسى ظهر المجن وعاداه بعد مودة حيث أساء فهماً فأساء الجواب ﴿قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾^(٢).

وعُرف سر موسى ﷺ، فقرر فرعون إعدامه، وإن العصا من العصية، أمر عظيم أثاره أمر صغير، ولكن مع امتداد أصدقاء موسى ﷺ ومريديه حتى على مستوى رفيع يصل جهينة الأخبار من أقصا المدينة قائلاً: ﴿يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(٣).

(١) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج ٢، ص ١٧١.

(٢) سورة القصص، الآية ١٩.

(٣) سورة القصص، الآية ٢٠.

فخرج وفق معطيات الواقع وما عزم عليه فرعون، في هيئة الخائف المتربص، الذي هو مظهر من غريزة الدفاع عن النفس، بعد أن دافع عن شيعته بهيئة المقاتل والمكافح، ولعل هذين المظهرين (الخوف وقبلة الغضب والمقاتلة) يرجعان لمنشأ واحد ألا وهو غريزة الدفاع عن النفس والمعتقد والكرامة، فكما لا يعاتب أحد موسى ﷺ في وقوفه مع الإسرائيلي ضد القبطي، لا يجوز أن يُوصم موسى ﷺ بشيء لا يليق بنبي ومصلح، لأنه عاش لحظات الخوف ثم خرج مهاجراً.

موسى ﷺ في (مدين - الوادي المقدس)

يغادر موسى ﷺ مصر بغير ظهر ولا دابة ولا خادم، تخفضه أرض وترفعه أخرى، يبيت في قلب الصحراء، وكأنه ضيف جنّ حيث لا أنيس له، وقد خمسه الجوع وأضعفه وأدخل بطنه في جوفه، والأدهى أنه لا يعلم أين يذهب، بل لا يدري حتى بمعالم الطرق، حتى أخذته العناية الإلهية باتجاه الحدود الشرقية لمصر حتى يصل مشارف مدين، وهي مدينة محاذية لتبوك^(١).

ويظهر أنها تقع الآن ضمن الجزيرة العربية قريبة من خليج العقبة، ويظهر أنها كانت بلاد خصبة، كان أهلها في سعة من العيش وكانوا تجاراً أهل بيع وشراء ومعاملات مع الناس وكانت بلادهم مقصودة^(٢).

وقد اختلف المفسرون في اسم مدين فذهب فريق إلى أنه اسم رجل في الأصل ثم كانت له ذرية فاشتهر في القبيلة كتميم وقيس وغيرهما، وذهب آخرون إلى أنه اسم ماء نسب القوم إليه، والأول

(١) معجم البلدان، ج ٥، ص ٧٧.

(٢) الأنبياء قصصهم - حياتهم، ص ٢٥٣.

أصح لأن الله تعالى أضاف الماء إلى مدين في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾^(١) ولو كان اسماً للماء لكانت الإضافة غير صحيحة وغير حقيقية والأصل في الإضافة التغير حقيقة^(٢).

انتهى موسى عليه السلام إلى أصل شجرة فنزل تحتها، فإذا به يرى مشهداً ما حلّ في صدره ولم تشرح له نفسه، حيث رأى أمة من الناس معظمهم من الرجال أولى القوة يسقون أغنامهم، وجاريتان ضعيفتان تنتظران انتهاء القوم، فتقدم نحوهما.

وقد فسر بعضهم بأن موسى عليه السلام قد احلولى الحديث معهما «ورد بظاهره ماء مدين وورد بقلبه موارد الأنس والروح، والموارد مختلفة فموارد القلب رياض البسط بكشوفات المحاضرة فيطربون بأنواع الملاطفة، وموارد الأرواح مشاهد الأرواح فيكاشفون بأنوار المشاهد، وكانت الأجنبية والبعد عن المحرمية يوجبان إمساكه عن مخاطبتهم والإعراض والسكون عن سؤالهما ولكن الذي بينهما من المشاكلة والموافقة بالسر استنطقه حتى سألهما عن قصتهما».

وهذا كما ترى، والحق أن موسى عليه السلام عرف أن التقدم في مورود الماء لسقي الماشية لأولي القوة، وأما أهل الضعف فحظهم التأخر، حتى إذا لم يبق وارد ولا صادر سواهم أوردوا ماشيتهم، فكان الأليق بهؤلاء القوم أن يفسحوا المجال للمراأتين، وكأنه قال في نفسه يا لهذا الزمن، لم يبق فيه من المروءة إلا حُشاشة محتضر، فجاء سائلاً

(١) سورة القصص، الآية ٢٣.

(٢) دراسات تاريخية من القرآن، ج ٢، ص ١٧٤.

إياهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾.

قالتا: «أبونا شيخ كبير ونحن جاريتان ضعيفتان لا نقدر أن نزاحم الرجال فإذا سقى الناس سقينا».

فأخذ موسى ﷺ دلوهما قائلاً: «قدما غنمكما».

وهذا بخلاف قسم من الثائرين، حيث يسقطون خدمة الناس من حسابهم لحجة أن العمل للقضية أهم من كل شيء، أما موسى ﷺ فإنه يرى خدمة المستضعفين من أهم أهدافه، لذلك سعى لامرأتين وكان فتى قوياً عركته صعوبات الحياة وتحدياتها^(١).

رجعتا بكرة قبل الناس، وأقبل موسى ﷺ إلى الشجرة فجلس تحتها قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^(٢) روي أنه قال ذلك وهو محتاج إلى شق ثمرة فهو جائع الوشاح ضامر البطن.

فلما رجعتا إلى أبيهما قال: «ما أعجلكما في هذه الساعة».

قالتا في زمن عدمت فيه الشهامة، فأصبحت معونة الضعفاء مقياساً حقيقياً لصلاح الرجل دون الشك في بواعثه: «وجدنا رجلاً صالحاً رحيماً فسقى لنا».

فقال لإحدهما: «اذهبي فادعيه لي».

لقد دخلت المرأة معترك الحياة بالعمل والتعاطي الإيجابي مع

(١) من هدى القرآن، ج ٩، ص ٢٩٣.

(٢) سورة القصص، الآية ٢٤.

الناس، حيث الأديان الإلهية عموماً لا تعارض دخول المرأة إلى الواقع الاجتماعي وتعاملها مع الآخرين، ولكن بشرط أن يكون تعاملها محاطاً بالأدب والحياء^(١).

فجاءته تمشي على استحياء قائلة: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾^(٢).

فقال لها وهو خافض الطرف، وقور ساكن: «وجهيني إلى الطريق، وامشي خلفي فإننا بنو يعقوب لا ننظر في أعجاز النساء».

وهكذا تسامى موسى عليه السلام في الأدب، ليس فقط لأنه غريب لا يعرف خصائص هذا المجتمع، بل تلك إجرياه وطبيعته ولا ننسى الفتاة التي دخلت في حوار مع أجنبي محافظة على حياتها ورزانتها.

وهكذا نلاحظ توازناً بين طرفي الواقعة موسى والفتاة، الفتاة خيرة تمشي على استحياء، ولا تتحدث مع الرجال إلا للضرورة، وموسى رجل ملتزم حقاً بمبادئ السماء لا يمشي خلف المرأة ولا يتلصص بالنظر إليها.. إذن طرفا الواقعة الرجل والمرأة كلاهما عنصر نظيف في سلوكهما الذي جمعته واقعة الاصطحاب^(٣).

فلما جاءه، رأى موسى عليه السلام الشيخ حافلاً حاشداً مجتهداً في خدمته وضيافته، وقصّ عليه القصص فدعا الشيخ أن ينفذ الله حكمه،

(١) من هدى القرآن، ج ٩، ص ٢٩٩.

(٢) سورة القصص، الآية ٢٥.

(٣) دراسات فنية في قصص القرآن، ص ٤٦٢.

لا ما يحذره ع، حيث قال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

وفي حوارٍ صريح بين البنت والأب، تعبر عن إعجابها بموسى ﷺ وبقوته وأمانته، في زمن قلّ فيه أن يجد المرء نقي الظرف أميناً غير خائن، فقالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾^(٢).

فقال لها الشيخ: «يا بنية هذا قوي قد عرفته.. الأمين من أين عرفته؟ قالت: يا أبت إنني مشيت قدّامه، فقال: امشي من خلفي، فإن ضللت فأرشدني إلى الطريق فإننا قوم لا ننظر في أدبار النساء»^(٣).

ومن المثير للإعجاب حقاً هو امتلاك تلك المرأة المعايير والأسس السليمة الأولية لتقييم الشخصيات، مما يعبر عن نضج ووعي منقطع النظير، ويجعلها بمنأى من الوقوع في أخطاء فادحة في حياتها.

وحين اقترحت على أبيها استتجاره يبدو أنها قد أصابت المحزّ، وتحدث المفاجأة السعيدة حين قال لموسى ﷺ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ بِحَدِي ابْنَتِي هَاطِنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾^(٤).

قال كثير من الفقهاء إن الرعي مدة الثماني الحجج أو العشر ليس

(١) سورة القصص، الآية ٢٥.

(٢) سورة القصص، الآية ٢٦.

(٣) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٣٢.

(٤) سورة القصص، الآية ٢٧.

مهرًا للزواج ولا هو جزء منه، بل المهر مستقل تمامًا عن الرعي، وإن قول الشيخ ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي﴾ معناه إن رعيت عندي بأجر زوجتك إحدى ابنتي تمامًا كما تقول «إن فعلت كذا فعلت كذا»^(١).

وقضى موسى ﷺ أتمهما، لأن الأنبياء لا يأخذون إلا بالأفضل والتمام، وعلى هامش هذا الزواج هناك حقائق نشير لبعضها:

١- قبل أن يتقدم موسى ﷺ بطلب الزواج بادر شعيب إلى ذلك حيث وجده كفؤًا، ووجد في زواجه من ابنته ضمانًا لمستقبلها وسعادة لها في الحياة، وهذا خلاف ما نجده الآن في المجتمعات التي صار فيها عرض الأب بناته للزواج ممن يجده أهلاً لها عيباً كبيراً.

٢- البنت الصغرى هي التي تزوجت وليست الكبرى على عكس بعض التقاليد الخاطئة التي ترى ضرورة زواج الكبرى أولاً^(٢).

ونشير هنا أنه قد اختلف في هذا الشيخ، من هو؟ أجمع أكثرهم على أنه شعيب، وقال فريق منهم أنه غير شعيب حيث كان قبل زمان موسى ﷺ بمدة طويلة لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾^(٣).

وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل ﷺ بنص القرآن وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى ﷺ مدة طويلة تزيد على أربعمائة

(١) تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٦١.

(٢) من هدي القرآن، ج ٩، ص ٣٠٣.

(٣) سورة هود، الآية ٨٩.

سنة كما ذكره غير واحد^(١) وعلى كل تبقى كلمة الشيخ مغنية لها دلالتها حيث قال في معرض هذه النقطة، ليس النزاع في التسمية من دأب المحصلين.

بقى موسى ﷺ المدة المضروبة بينه وبين الشيخ في مدين حيث الرخاء والأمن، ومع ذلك لم ينسَ الدموع والدماء والمآسي التي لا يزال بنو إسرائيل يعانون منها، وما أن انتهت المدة المضروبة حتى عزم على الرحيل والعودة. وسار بأهله منفصلاً عن أرض مدين يؤمّ مصر، حتى انتهى إلى جانب الطور الغربي وقد جنّ عليه أخضر الجناحين في عشية شتائية البرد، وأخذت السماء ترعد وتبرق وتمطر وأخذ امرأته الطلق.

وقد عمد موسى ﷺ إلى اقتداح النار مراراً فلم تور فتحير فقام وقعد وأخذ يتأمل ما قرب وما بعد تحيراً فبينما هو كذلك إذا آنس من جانب الطور ناراً فقال لأهله: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾^(٢). حيث قد ضلّ الطريق، فلما آتاها رأى نوراً عظيماً ممتداً من عنان السماء إلى شجرة عظيمة هناك.

فها هنا ختم موسى ﷺ حياة إنسان وبدأ حياة جديدة يضطلع فيها بمهمة الرسالة، وفي الكافي عن أبي جميلة قال سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول: كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإن موسى ذهب

(١) راجع قصص الأنبياء للنجار، ص ٢٠٥.

(٢) سورة القصص، الآية ٢٩.

يقتبس ناراً فانصرف إليهم وهو نبي مرسل^(١).

ارتعدت فرائص موسى، وأصبح فؤاده مخلوعاً حيث رأى ناراً عظيمة ليس لها دخان تلهب من جوف شجرة خضراء لا تزداد النار إلا عظمة والشجرة إلا خضرة فلما دنا منها خاف ورجع إلى الورا ثم ذكر حاجته إلى النار فرجع إليها فدنت منه، فنودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ﴿أَنْ يَا مُوسَى﴾ فنظر فلم يرَ أحداً فنودي: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) فلما سمع ذلك علم أنه ربه، فاقرب فلما قرب منه وسمع النداء ورأى تلك الهيبة خفق قلبه وكلَّ لسانه وما في وجهه رائحة دم، وصار حياً كال ميت، فأرسل الله إليه ملكاً يقوي قلبه، فلما رجعت إليه قوته نودي: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾^(٣).

وقيل في سبب هذا الأمر (والأمر أعلم):

١- إنه كان من جلد بقرة ذكية ولكنه أمر بخلعهما ليباشر بقديمه الأرض فتصيبه بركة الوادي المقدس.

٢- إن الحفا علامة التواضع ولذلك كانت السلف تطوف حفاة.

٣- إن موسى عليه السلام إنما لبس النعل اتقاء من الأنجاس وخوفاً من الحشرات فأمنه الله مما يخاف فأعلمه بطهارة الموضع.

(١) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٣١.

(٢) سورة القصص، الآية ٣٠.

(٣) سورة طه، الآية ١٢.

٤- فرغ قلبك من حب الأهل والمال^(١).

أما علاقة خلع النعلين بالوادي المقدس طوي، فيتلخص أن الإنسان في الأماكن المقدسة والمشرقة يجب ألا يكتفي بخشوع قلبه، وإنما يجعل مظهره بشكل يدل على أنه خاشع لله سبحانه لذلك يستحب في بعض الأماكن المقدسة أن يتحرك الإنسان إليها بخطى وثيدة لكي تدل طريقة مشيه على أنه خاشع^(٢). ونضيف هنا استحباب تعاهد النعل تحفظاً من تنجيسه، قال النبي ﷺ: «تعاهدوا نعالكم عند أبواب مساجدكم»^(٣).

ثم قال الله سبحانه تسكيناً لقلبه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾^(٤).

يسأله عما في يده وهو أعلم به من موسى ﷺ، إذن هناك سر، أجل وهو سر عظيم يكمن في هذه العصا وقد أراد سبحانه أن يظهره لموسى ﷺ وهو تحول العصا إلى حية.

وإذا كانت نطفة الإنسان تحمل خصائصه، والبيضة تحمل خصائص الدجاجة، والبذر خصائص النبات فإن هذه الخشبة اليابسة لا تحمل شيئاً من خصائص الحية ومع ذلك تحولت إليها.. وهذا هو

(١) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٦٦.

(٢) من هدى القرآن، ج ٧، ص ١٣٦.

(٣) الفقه، كتاب الصلاة، ج ١٩، ص ٢٥١.

(٤) سورة طه، الآية ١٧.

سر الإعجاز^(١).

قال وقد رفّ فؤاده لحديثه وطرب: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾.

قال: ﴿أَلْقَهَا يَا مُوسَى﴾^(٢) فألقاها فصارت حية، ففزع منها موسى وعدى، فناداه الله: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾^(٣)، فأخرج يده من جيبه فأضاءت له الدنيا.

فقال الله عز وجل: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(٤) إذا المطلوب مواجهة فرعون، في مهمة محددة وهي أن ينقذ بني إسرائيل من الاضطهاد الفرعوني والسماح لهم بالخروج معه من مصر ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾^(٥).

ولأن موسى ﷺ كانت تورقه مأساة شعبه فقد شدّ حيازيمه ووطّن نفسه على هذا الأمر، ولكنه عرض مجموعة من العقبات تعترض طريق ذلك الهدف ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِذَاءً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ

(١) تفسير الكاشف، ج ٥، ص ٢١٠.

(٢) سورة طه، الآية ١٩.

(٣) سورة القصص، الآيتان ٣١ - ٣٢.

(٤) سورة القصص، الآية ٣٢.

(٥) سورة طه، الآية ٤٧.

أَنْ يُكَذِّبُونُ ﴿١﴾.

وتتلخص الصعوبات:

١ - موقفهم الشخصي من موسى ﷺ فقد رُبِّي في دار فرعون، وكان عزيزاً مقرباً ولكن اعتبروه عاقاً وخائناً فلا كرامة له عندهم بل هو عندهم العدو المبين^(٢).

٢ - عقدة لسانه التي قد تمنع فهمهم له ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿، وقد عيّره فرعون بعدم الفصاحة بقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾^(٣).

ومن خلال حديث موسى ﷺ هذا ينقدح لنا أن موسى ﷺ لم يزغ عن قصده، بل هو مستقيم الصّوب على طريق النضال، ولكنه على كل حال لا يرى المواجهة المباشرة مع فرعون وجهاً لوجه التي هي أعلى قمم الصراع والنضال والتي تتطلب إمكانيات عظيمة، وظروفاً تكاد تكون خارقة حتى يُكتب له النجاح. وأما وقد أمره الله بالذهاب فقد غيرت تلك الخطة التي كانت في رأسه، وشدّ الرحال نحو مصر عازماً على مقابلة فرعون.

(١) سورة القصص، الآيات ٣٣ - ٣٤.

(٢) راجع الأنبياء حياتهم - قصصهم، ص ٢٨١.

(٣) سورة الزخرف، الآية ٥٢.

عصا موسى ﷺ تنقذ عبيد العصا وتقرع شديد العصا

عاد موسى ﷺ لامراته وقد سأله من أين جاء؟ فردّ قائلاً: «من عند رب تلك النار»^(١) وتوجه معه أهله إلى مصر ودخلها ليلاً ونزل في دار أهله التي فيها أمه وأخوه وبقية أهله، ويظهر أن أباه كان متوفياً، وكان لملاقاتهم له واجتماعهم به بعد تلك الغيبة الطويلة، الدهشة والسرور العظيمين، خصوصاً لأمه الطاهرة.

وقد أخبرهم بأمره ومجمل ما حلّ به ولاقاه من مصائب وأذى إلى أن وصل مدين، ولقد أعلم أخاه هارون بأنه شريكه في الرسالة وأنه نبي، ومعين له على تبليغها والقيام بالأعباء وإقامة الحجة بأمر الله تعالى وإلزامه، فلم يكن من هارون إلا الإجابة والقبول والامتثال لأمر الله تعالى^(٢).

فغدا إلى فرعون، فقبل لفرعون إن على الباب فتى يزعم أنه رسول رب العالمين، وفي الحديث عن أبي عبد الله الصادق ﷺ أنه

(١) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٣٣.

(٢) الأنبياء حياتهم - قصصهم، ص ٢٨٤.

قال: «لما بعث الله تعالى موسى عليه السلام إلى فرعون، أتى بابه فاستأذن عليه، فلم يؤذن له فضرب بعصاه الباب فاصطكت الأبواب مفتحة ثم دخل على فرعون»^(١).

لقد كان في انتظار موسى عليه السلام عقبتان في تبليغ فرعون أمر الله بخروج بني إسرائيل من مصر مع موسى، الأولى تتمثل في موقف فرعون الشخصي من موسى عليه السلام وقد مر بيانه.

والثانية الحالة التألّفية التي أحاط فرعون بها نفسه، وبالتالي كيف يقبل من حيث المبدأ موسى كرسول من رب فرعون، ونشير هنا إلى أن الملوك في قديم الزمان يحيطون أنفسهم بهالة من التقديس، ويضعون مكانتهم في إطار الإلهية، لا جهلاً منهم بأنهم أناس لا يختلفون عن غيرهم، ولكنهم يفعلون ذلك تمويهاً على العامة حتى يأمنوا غائلة الثورات الهوج من الذين يطمعون في تبوئ عرش الملك، مقدرين أن ذلك التقديس يحول بين النازعين إلى الثورة وبين ما يشتهون^(٢).

وهناك اتجاهان في تفسير اعتقاد قوم فرعون بالإلهية:

الأول: يتخلص بالقول إن فرعون وأتباعه كانوا من الوثنيين الذين يعبدون الأصنام إلى جانب اعتقادهم بالله، ولكن اعتقادهم بالله بوصفه رب الأرباب أو إله الآلهة الذي لا يمكن إدراكه وبالتالي لا تجوز عبادته، وإن هناك مجموعة من الآلهة والأرباب هي التي تسيطر

(١) الأنبياء حياتهم - قصصهم، ص ٢٨٥.

(٢) قصص الأنبياء، للنجار، ص ١٨٢.

على الظواهر الطبيعية وتسييرها^(١).

وبالتالي إن إلهية فرعون لم تكن بمعنى أنه خالق الكون ومدبره أو أن له سلطاناً في عالم الأسباب الكونية، وإنما كان يدعي الإلهية على شعبه بمعنى أنه حام هذا الشعب بشريعته وقانونه، وأنه بإرادته وأمره تمضي الشؤون وتقضي الأمور.

فلم يكن الناس في مصر يتعبدون إلى فرعون بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له، فقد كانت لهم آلهتهم كما كان لفرعون نفسه آلهته التي يعبدها كذلك كما هو ظاهر من قول الملأ له ﴿وَيَذَرُكَ وَأَٰلِهَتَكَ﴾^(٢) وكما يثبت ذلك تاريخ مصر في العصور الفرعونية^(٣).

الثاني: الذي يرى أن فرعون وقومه كانوا لا يعتقدون بفكرة رب الأرباب إنما كانوا ينفون وجود الله تماماً، قال تعالى حاكياً عن فرعون ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾^(٤).

وبالفعل كان محور نقاش وحوار فرعون مع موسى ﷺ منصباً منذ اللحظة الأولى حول شخصية موسى ﷺ وموضوع الإلهية، فمنذ أن قال موسى لفرعون مخبراً إياه أنه رسول من رب العالمين، وطلب إرسال بني إسرائيل معه، أظهر فرعون استياءه مدعياً أنه هو قد أطعم موسى ﷺ من ظهر يديه، مع ذلك فقد فعل موسى ما فعل من

(١) دراسات ثقافية، مجلة الشهيد، العدد ١٥٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٢٧.

(٣) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج ٢، ص ٢١٩.

(٤) سورة القصص، الآية ٣٨.

قتل القبطي والكفر بنعمة فرعون-من وجهة نظر فرعون- حيث قال:
﴿أَلَمْ نَرْبُكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ
الَّتِي فَعَلْتَ﴾^(١).

فمن أين تدليت علينا وأتيت ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

واصل طامس القلب قائلًا: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

فقال موسى ﷺ: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ
كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾^(٣).

رد فرعون وكأنه يدغدغ موسى ﷺ بكلامه: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ
أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾^(٤).

يتنصر موسى ﷺ للتوحيد فيقول: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٥).

وتكلم فرعون بلغة السلطان: ﴿لَئِنْ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ
مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾^(٦).

تلك لغة الفراعنة، أما لغة المصلحين فتجسدت في قول موسى ﷺ:

(١) سورة الشعراء، الآيتان ١٨-١٩.

(٢) سورة الشعراء، الآية ٢٣.

(٣) سورة الشعراء، الآية ٢٤.

(٤) سورة الشعراء، الآية ٢٥.

(٥) سورة الشعراء، الآية ٢٨.

(٦) سورة الشعراء، الآية ٢٩.

﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾^(١).

كلمات انفعالية لفرعون لعله تمنى في وقت آخر لو لم يقلها حيث قال: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٢).

﴿فَالْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾^(٣) لم يبق أحد من جلساء فرعون إلا وهرب، ودخل فرعون من الرعب ما لم يملك نفسه فقال فرعون: يا موسى أنشدك الله والرضاع إلا ما كفتها عني.

فكفها ثم نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، فلما أخذ موسى العصا رجعت إلى فرعون نفسه وهمّ بتصديقه فقام إليه هامان فقال له: بينما أنت إله تعبد إذ صرت تابعا لعبد^(٤).

وهكذا نلاحظ أن هدف موسى ﷺ كان إطلاق يد فرعون عن بني إسرائيل، إلا أن الحوار مع فرعون أخذ اتجاهاً آخر كما مر، ولعل ذلك يعود إلى شعور فرعون أن قبوله مطلب موسى ﷺ على أساس أنه مرسل من رب العالمين يعني تهديد سلطته الروحية والزمينية.

ففكر في سلاح يواجه فيه موسى ﷺ حتى أنقذ في ذهنه سلاح في يده، ومن يحملون هذا السلاح هم طوع إشارته، إنه السحر الذي كان غاية الحضارة المصرية، حتى أن مصر كانت تموج بالسحرة،

(١) سورة الشعراء، الآية ٣٠.

(٢) سورة الشعراء، الآية ٣١.

(٣) سورة الشعراء، الآية ٣٢.

(٤) راجع بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٢٠.

وقد بلغوا شأواً بعيداً فيه.

ونرى المصريين يحبون أحاديث السحر وخوارق الأعمال، وفي بردية وستكار (محفوفة بمتحف برلين) قصة الساحر (ددى) الذي بلغ من سحره أن يلحم الرأس المقطوع ويذل الأسد لإرادته، إذ دعي إلى حضرة الملك فوفو، حيث عرض سحره عليه، وأوقعه بأوزة ثم ثور فصل رأس كل منهما، ثم ما زال يقرأ من عزائمه والرأس يقترب من الجسد حتى التحما وعاد الحياة إلى كل منهما، ثم أعد التجربة مرة ثانية في بطة ثم في ثور فنجح في ذلك^(١).

ولعل من ثمرة السحر وثقافة شعب قائمة عليه أن يكون على سرير الملك حاكم كفرعون، فالسحر نهاية الحضارة، والعدل أساس العمران.

فنادى فرعون في الملاء الذي حوله ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾.

فرعون يحذر ويقول: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ (٣٨).

لقد طالب فرعون بضرب موعد بينهما مجرد موعد، دون أن يحدد اليوم أو الساعة وكما طالب بأن المكان مستوياً على الفريقين،

(١) المصدر السابق، ص ١٩٠.

(٢) سورة الشعراء، الآيات ٣٣-٣٧.

(٣) سورة طه، الآية ٥٨.

وهذا الاقتراح يكشف لنا عن مبلغ القلق والحذر اللذين يسيطران على نفسية فرعون وهذا على العكس تماماً من موسى ﷺ.

فموسى ﷺ حدّد الزمان على نحو مضاد تماماً للإيهام الذي تعمدّه فرعون، فقد طالب موسى بأن يتم الموعد في يوم لا يكاد يبقى فيه أحد في بيته، بل يخرج الناس كلهم إلى الشوارع والأسواق، ومن هذا الاقتراح نستكشف مدى اليقين والاطمئنان بنتائج المبارزة لدى موسى ﷺ ويظهر تماماً مدى القلق والشك لدى فرعون^(١).

فلما ارتفع النهار واجتمع الخلق الذين لا يحصون كثرة، فهم بعديد الحصى والكرى، وكانت قبة علوها سبعون ذراعاً وهي ملبسة بالفولاذ المصقول فإذا أوقعت الشمس عليها لم يقدر أحد أن ينظر إليها من وهج الشمس ولمعان الحديد.

فلما تهيأوا وعصبوا بفرعون مجتمعين حوله، أو جس السحرة في نفوسهم أن لا عدوان على موسى ﷺ ولا سبيل إليه، فلسان حال السحرة مع فرعون أعرج يقود كسيراً، فقالت السحرة لفرعون: «إنا نرى رجلاً ينظر إلى السماء ولم يبلغ سحرنا السماء».

ثم قالوا لموسى ﷺ إيهاماً بالغلبة والثقة بأنفسهم وعدم الاكتراث بأمر موسى ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُتْلِقِينَ﴾^(٢).

(١) دراسات فنية في قصص القرآن، ص ٣٧١.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١١٥.

فألقوا جبالهم وعصيتهم وقالوا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
الْغَالِبُونَ﴾^(١) فأقبلت تضطرب وترتعش ويموج بعضها ببعض فتصور
من نظر إليها أنها حيات.

قال كثير من المفسرين إن سحرة فرعون احتالوا لتحريك الجبال
والعصي بما جعلوا فيها من الزئبق حتى تتحرك بحرارة الشمس، والقرآن
عبر: ﴿فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾^(٢)
فهي في الحقيقة لا حراك لها، وما الحركة الظاهرة إلا بتأثير الخيال
السحري^(٣).

قال الصادق عليه السلام في جواب من سأل: يقدر الساحر أن يجعل
الإنسان بسحره في صورة الكلب والحمار أو غير ذلك؟ قال: هو أعجز
من ذلك وأضعف من أن يغير خلق الله، إن من أبطل ما ركبه الله وصوره
وغيره فهو شريك لله تعالى في خلقه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، لو
قدر الساحر ما وصفت لدفع عن نفسه الهرم والآفة والأمراض، ولنفي
البياض عن رأسه والفقر عن ساحته، وإن من أكبر السحر النسيمة يفرق
بها بين المتحابين ويجلب العداوة على المتصافين^(٤).

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾^(٥) فنودي ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ

(١) سورة الشعراء، الآية ٤٤.

(٢) سورة طه، الآية ٦٦.

(٣) من هدى القرآن، ج ٧، ص ١٨٨.

(٤) سفينة البحار، ج ١، ص ٦٠٥.

(٥) سورة طه، الآية ٦٧.

أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ فَإِنْ قِيلَ، فَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَافَ مُوسَى ﷺ أَوْ لَيْسَ خَوْفُهُ يَقْتَضِي شَكَّهُ فِي صِحَّةِ مَا أَتَى بِهِ؟

قلنا إنما رأى من قوة التلبيس والتخيل ما أشفق عنده من وقوع الشبهة على من لم ينعم النظر فأمنه الله تعالى من ذلك وبين له أن حجته ستضح للقوم بقوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (٢).

﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ (٣) فألقى موسى ﷺ عصاه فذابت في الأرض مثل الرصاص ثم طلع رأسها وفتحت فاهها ووضعت شدقها الأعلى على رأس قبة فرعون ثم دارت كما تدور الرحي والتقمت عصي السحرة وحبالهم وما أتوا به كأنه لم يكن لهم شيء.

وانهزم الناس لما رأوا عظمها وعظم فعلها، وأدهشهم منظرها ولم يملكوا أنفسهم أمام رؤيتها فأخذ بعضهم وسحق بعضهم بعضاً، ثم دارت على قبة فرعون فالتهمت أعصاب فرعون وهامان خوفاً، نادى الله موسى ﷺ خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى، فرجع موسى ﷺ لف على يده عبادة كانت عليه ثم أدخل يده في فمها فإذا هي عصا كما كانت (٤).

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (٥)

(١) سورة طه، الآية ٦٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٥٥.

(٣) سورة طه، الآية ٦٩.

(٤) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٢٠.

(٥) سورة طه، الآية ٧٠.

وهكذا أول من آمن بموسى ﷺ هم السحرة لأنهم أعلم بالسحر، فهم سحروا أعين الناس وأوحوا إليهم أن عصيهم ثعابين وهم أنفسهم يرونها عصياً خشبية، وهم أعلم من فرعون بما يخدعون به الناس، وحينما ألقى موسى ﷺ عصاه الخشبية تحولت إلى ثعبان ثم أكلت عصيهم وتحولت إلى عصا موسى ﷺ الأولى.

وبهذا يتقن السحرة أن العصى لا تأكل عصى وما حصل إنما يدل على أن عصى موسى ﷺ قد تحولت إلى ثعبان حقاً فأكلت العصى وعادت سيرتها الأولى، وهذه أثبتت لهم قبل غيرهم أن موسى ﷺ رسول وليس كما يزعم فرعون^(١).

وقد أظهر السحرة رباطة جأش واطمئنان عميق في صحة موقفهم، وبعبارة أن عملية التغيير التي يسعى الإيمان لتحقيقها في نفوس الناس قد حصلت، وثم استبدال صفات الذلة والصغار والخوف والهلع التي كانت قائمة في نفوس السحرة قبل حادثة المباراة بصفات الصبر والشجاعة والتضحية^(٢).

غضب فرعون نافشاً عفريته عاقداً ناصيته، وقال لهم: ﴿أَمْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنِ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَنُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣) إن الطاغية أخطر ما يخافه أن تكون المعارضة لحكمه من الطبقة المثقفة،

(١) حركة المجتمع في التاريخ، ص ٢٠٨.

(٢) دراسات ثقافية، مجلة الشهيد، عدد ١٦٣.

(٣) سورة الشعراء، الآية ٤٩.

وهؤلاء هم قمة الطبقة المثقفة في البلاد فإذا انقلبوا إلى الإيمان بموسى وهارون كان معنى هذا إتباع كثير من الشعب لهم بدافع ما لهم في نفوس الناس من تعظيم وتوقير، لأنهم كانوا من طبقة أكابر العلماء بدلالة قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ في ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾^(١).

قالوا له: ﴿نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

بعد إيمان السحرة، جاء الناس إرسالا يعلنون ولاءهم وإيمانهم بموسى ﷺ، فشرع فرعون أن سلطته الزمنية والروحية على وشك الانحسار والذوال، فأصيب بالهلع، والخوف وعزم على خلع عذاره، وانهمك في الغي دون حياء، وانقذ في أذهان رهطه أن العلاج الناجح هو القوة والعنف ضد موسى ﷺ ومن آمن به، ولذا أخذوا يحرضون فرعون على مذبحه بين بني إسرائيل: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾^(٣).

وكانهم عبروا عما يساور فرعون من هواجس، فأعلن قراراً سريعاً مباشراً: ﴿قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾. ويترقى فرعون في كلمات الوعيد ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾^(٤).

(١) سورة الشعراء، الآية ٣٧.

(٢) سورة الشعراء، الآية ٥١.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٢٧.

(٤) سورة غافر، الآية ٢٦.

فرعون يرتدي مسوح الداعين إلى الحق ويخاف على الناس أن يضلهم موسى ﷺ والمفهوم الطبيعي أنه لن يقتل موسى ﷺ بيديه وإنما هو يطرح فكرة قتله أمامهم لتقوم سلطات الدولة بتنفيذها^(١).

وإن كلمة ﴿ذُرُونِي﴾ تفيد أنه كان هناك من يعوقونه أو يمنعونه أو يشيرون عليه بغير ما كان يرى، وقد يكون بعض مستشاري فرعون أحس في نفسه رهبة أن ينتقم إله موسى له أو يبطش بهم، وليس هذا ببعيد فقد كان الوثنيون يعتقدون به ويكون قول فرعون ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ رداً على هذا التلويح وإن كان لا يبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون إنما كانت تبجحاً واستهتاراً لقي جزاءها في نهاية المطاف^(٢).

وكان من أبرز المعارضين لفكرة قتل موسى ﷺ مؤمن آل فرعون حيث قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾^(٣).

لقد أراد فرعون أن ينتصر بالعنف والإرهاب تعويضاً عن خسارته الثقافية والإعلامية، وكان القبط الأداة المنفذة فصاروا يضربون بني إسرائيل عن عُرْض لا يبالون، وأصبحوا رمحاً واحداً متحدين يذيقون بني إسرائيل الألم والهوان وفي الوقت ذاته أراد فرعون أن يسترد مكانته الروحية كإله، فكانت فكرة بناء الصرح، ولنقل ناطحة السحاب الفرعونية ﴿أَيُّهَا الْمَلَأُمَا

(١) أنبياء الله، ص ٢١٨.

(٢) في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٣٠٧٨.

(٣) سورة غافر، الآية ٢٨.

عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١﴾.

وهكذا استخف فرعون بعقول قومه حتى جردها من التفكير في مصيرها ومعتقداتها ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٢) إن الفسق يصرف الإنسان عن الالتفات لمستقبله ومصالحه وأمواره ويورده الهلاك وذلك ما وقع لقوم فرعون.

لقد بلغ التقدم العمراني في عصر فرعون إلى أنهم يستخدمون اللبن بعد حرقه وطبخه، وهذا ما كان نادراً إلى عصر الرومان ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ (٣).

عشر (بتري) على طائفة من غير مألوف المصريين من الأجر المحروق بنيت به قبور، وأقيمت به بعض من أسس المنشآت ترجع إلى عصور الفراعين رعمسيس الثاني، ومربتاح وسيتي الثاني من الأسرة التاسعة عشر (١٣٠٨ - ١١٨٤ ق. م) (٤).

فإذاً وصلت المدينة مرحلة متقدمة في عصر فرعون، ومع ذلك نقول مطمئنين إن العقل قد وصل إلى درك الانحطاط، ونعني بالعقل هنا، هو الذي يهدي الإنسان ويحدد له الخطأ من الصواب ويبين له إلى أين يسير.

(١) سورة القصص، الآية ٣٨.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٥٤.

(٣) سورة القصص، الآية ٣٨.

(٤) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج ٢، ص ٢١٣.

لقد استطاع فرعون أن يُسير مُجتمَعين، مجتمع القطب وذلك بتغييب العقل، فأصبحوا كقطع الغنم لا يدرون إلى ماذا سيوصلهم فرعون، ومع ذلك ساروا وأطاعوه ومجتمع بني إسرائيل وذلك بالعنف والإرهاب. حتى عمل موسى ﷺ على تهدئة الخواطر ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١). فكان جوابهم المعبر عن عمق المعاناة: ﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾^(٢).

لقد أراد فرعون من تلك الممارسة المستهجنة إنسانياً تحطيم إرادة بني إسرائيل، ولذلك كانت كلمات موسى ﷺ لقومه تعالج عقدة خور العزيمة والتعب وذلك عبر إذكاء عوامل الاستعداد، ومنها:

١ - تصعيد قابلية التحدي وروح الصمود ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾.

٢ - وضع المجتمع الجديد أمام رؤية مستقبلية واضحة للأحداث وأن خاتمة الصراع ونهاية المعركة الحضارية تكون إلى جانب الرسالة بشرط الصبر وتعميق الصلة بالله والاستقامة ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

ويتحقق وعد الله حينما يصبح قوم فرعون يعانون من ظواهر خاصة في مقدمة لإتمام الحجة عليهم، فبعث عليهم الطوفان فخربت

(١) سورة الأعراف، الآية ١٢٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٢٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٢٨.

دورهم ومساكنهم حتى خرجوا إلى البرية وضربوا الخيام وامتلات بيوت القبط ماء، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل من الماء قطرة.

فقالوا موسى: ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم الطوفان وأنبت الله لهم في تلك السنة من الكأ والزرع والثمر ما أعشبت به بلادهم وأخصبت، فقالوا: ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا وخصباً فكفروا ولم يؤمنوا.

فأنزل الله عليهم في السنة الثانية الجراد، فجردت زرعهم وأشجارهم حتى كانت تجرد شعورهم ولحاهم وتأكّل الأنثواب والأمتعة وكانت تدخل بيوت بني إسرائيل ولا يصيبهم من ذلك شيء فعجزوا وضجوا وجزع فرعون من ذلك جزعاً شديداً وقال: يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا الجراد حتى أخلي عن بني إسرائيل فدعا موسى ربه فكشف عنهم الجراد بعدما قام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت، ولم يدع هامان فرعون أن يخلي بني إسرائيل بل أبقاهم في الأسر والإذلال.

فأنزل الله عليهم في السنة الثالثة القمل وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له، وهو شر ما يكون وأخبثه فأتى على زرعهم كلها واجتثها من أصلها وقال فرعون لموسى: ادع لنا ربك لئن كشف عنا ما بنا لأكفن عن بني إسرائيل، فدعى موسى حتى ذهب القمل بعدما أقام عندهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فنكثوا.

فأنزل الله عليهم في السنة الرابعة الضفادع فكانت تقفز على

طعامهم وشرابهم وامتلات منها بيوتهم وأبنيتهم فلا يكشف أحد ثوباً ولا إناء ولا طعاماً ولا شراباً إلا وجد فيه ضفادع وكانت تثب في قدورهم فتفسد عليهم ما فيها، فلقوا منها أذى شديداً فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا ذلك إلى موسى وقالوا: هذه المرة نتوب ولا نعود فادع الله أن يذهب عنا الضفادع فأنا نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل فأخذ عهودهم ومواثيقهم ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بعدما أقام عليهم سبعا من السبت إلى السبت، ثم نقضوا العهد وعادوا لكفرهم.

فلما كانت السنة الخامسة أرسل الله عليهم الدم فسال ماء النيل عليهم دما فكان القبطي يراه دماً والإسرائيلي يراه ماء فإذا شربه الإسرائيلي كان ماء، وإذا شربه القبطي كان دماً وكان القبطي يقول للإسرائيلي: خذ الماء في فيك وصبه في فيّ فكان إذا صبه في فم القبطي يتحول دماً.

وإن فرعون اعتراه العطش حتى أنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها يصير ماؤها في فيه دماً، فمكثوا في ذلك سبعة أيام لا يأكلون إلا الدم ولا يشربون إلا الدم.. فأتوا موسى فقالوا: ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فلما دفع الله عنهم الدم لم يؤمنوا ولم يخلوا عن بني إسرائيل^(١).

والعذاب يلخصه القرآن: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ

كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرَّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعَوَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ^(١).

ويأتي الأمر الإلهي لموسى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾^(٢) ويجمع فرعون الجيوش ويحتشد الناس لمطاردة موسى ﷺ وحربه، وتراءى الجمعان وقرب موسى ﷺ وقومه من البحر فقال أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾^(٣) فقال موسى ﷺ: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾^(٤).

واقترح البحر بأمر الله ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون وقومه وأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه فلما فعل انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وانشق له اثني عشر طريقاً وكان معه اثنا عشر سبطاً فأخذ كل سبط طريقاً.

وأقبل فرعون بجنوده فلما انتهى إلى البحر قال لأصحابه: ألا تعلمون أن ربكم الأعلى قد فرج لكم البحر وجعله طرقاً ييساً، فلم يجسر أحد من أصحابه أن يدخل البحر فتقدم فرعون بنفسه وأراد العبور ودخلوا كلهم بعده، وأمر الله الرياح فضربت البحر فانطبق البحر على فرعون وقومه^(٥).

(١) سورة الأعراف، الآيات ١٣٣-١٣٥.

(٢) سورة الشعراء، الآية ٥٢.

(٣) سورة الشعراء، الآية ٦١.

(٤) سورة الشعراء، الآية ٦٢.

(٥) راجع قصص الأنبياء، الجزائي، ص ٢٧٢.

خروج بني إسرائيل

١- عين المؤرخون تاريخ خروج النبي موسى ﷺ وأتباعه من مصر إلى أرض كنعان في حوالي سنة ١٢٩٠ ق.م، يوم كان رعمسيس الثاني على عرش مصر (١٣٠٠-١٢٣٣ ق.م) وقدر بعض الباحثين عدد هذه الجماعة آنذاك بحوالي ٦٠٠٠-٧٠٠٠ نسمة عند خروجهم من مصر.

ولا ندري على أي أساس توصل هؤلاء إلى هذا الرقم، ويلاحظ أن التوراة تقدر عدد جماعة موسى بستمئة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد، وهذا من جملة المبالغات التي اختص بها كتبة التوراة التي لا يمكن أن يتقبلها العقل^(١).

٢- الآثار المصرية وكذا الفلسطينية لم تقدم لنا تاريخاً محدداً عن هذا الحدث الخطير والذي أصبح له تأثير ضخم على التاريخ الديني... ويرجع ذلك إلى أن احتمال العثور على أسماء الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم في النصوص الإنسانية وخاصة المصرية ضعيف إلى درجة

(١) العرب واليهود في التاريخ، ص ٦٠٨.

كبيرة في ذلك، لأن حقيقة الصراع بين القيم السماوية والبشرية ربما كان سبب إغفال ذكرها، وهذه الظاهرة يلمسها المؤرخ في تاريخ الشرق الأدنى القديم بوجه عام بالنسبة إلى تعمد عدم التعريف بالمعارضين^(١).

٣- أعلن فرعون إيمانه وهو يعالج سكرات الموت في ظلمات البحر حيث قال: ﴿أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢) فما سبب عدم قبول توبته؟

قال الرازي وجوه:

١- إنه إنما آمن عند نزول العذاب والإيمان في هذا الوقت غير مقبول لأنه يصير الحال حينئذ وقت الإلجاء، وفي هذه الحال لا تكون التوبة مقبولة.

٢- إنه لم يكن مخلصاً في هذه الكلمة بل إنما تكلم بها توسلاً إلى دفع تلك البلية الحاضرة.

٣- إن ذلك الإقرار كان مبنياً على محض التقليد ألا ترى أنه قال لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل^(٣).

٤- في الوقت الذي كانت أبدان كل الفراعنة الذين شك الناس بأن أحدهم هو فرعون موسى راقدة في قبور وادي الملوك في (طيبا)

(١) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج ٢، ص ٢٣١.

(٢) سورة يونس، الآية ٩١.

(٣) التفسير الكبير، المجلد التاسع، ص ١٢٤.

وفي ذات الوقت تغفل التوراة عن ذكر إيجاد جسد فرعون بعد موته^(١) يعلن القرآن عن وجود جسد فرعون على اليابسة ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾^(٢).

ولذا يقول الفرنسي موريس بوكاي صاحب مؤلف التوراة والإنجيل والقرآن والعلم «قد ثبت كما يقول القرآن بأن بدن فرعون قد نجا. وأياً كان هذا الفرعون فإنه اليوم في صالة المومياوات الملكية في المتحف المصري في القاهرة ميسرة رؤيته للزائرين، والحقيقة هي إذن مختلفة جداً عن الخرافة المضحكة المنسوبة خطأ إلى القرآن من قبل الأب كوروايه»^(٣).

لقد كشف «لوريت» مفتاح المحنط ابن رمسيس الثاني الذي يتضافر كل شيء على إقناع الفكر بأنه فرعون الخروج، سنة ١٨٩٨ في طيبا، في وادي الملوك.

وقد نقل من هناك إلى القاهرة وحلّ (إليوت سميث) عصابته في الثامن من تموز سنة ١٩٠٧ وضبط محضر هذه العملية. وفحص البدن في كتاب المومياوات الملكية سنة ١٩١٢، وحالة حفظ المومياوات كانت مرضية في هذا العصر مع بداية التلف في عدة مواضع. ومن هذا التاريخ أصبحت المومياوات معروضة على الزائرين في متحف القاهرة مكشوفة منها الرأس والعنق^(٤).

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص ٢٧٧.

(٢) سورة يونس، الآية ٩٢.

(٣) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص ٢٧٧.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٧٨.

بين ربيع سيناء وجذوة التيه

عبر موسى ﷺ وقومه إلى شبه جزيرة سيناء، الأرض المذكار ذات الأهوال التي لا يسلكها إلا الرجال الذكور، حيث الصحراء القاحلة والحياة التي لا تُطاق، فلا شجر يتفياون ظلاله ولا غذاء، فشكوا إلى موسى ﷺ ما يلقون من العناء، فدعا موسى الله فساق الغمام ليظلهم ويقىهم وهج الشمس، وأرسل الله لهم المن والسلوى^(١).

واستسقوه الماء، فأمره الله أن يضرب بعصاه الحجر فلما ضربه انبجست منه اثنتا عشر عينا ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾^(٢).

وأصبح بنو إسرائيل في ربيع رابع، يجدون في سيناء المن أو العسل البري يشترونه من غير مشقة ولا جهد، وكانوا يجدون السلوى

(١) المن هو الحلوى، والسلوى طير معروف (من هدى القرآن، ج ١، ص ١٥٥).

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٦٠.

ولعله السماني وفيراً سيراً صيده، وكانت سيناء وما زالت قبلة للأفواج الكثيرة من طيور الهجرة تقبل في الخريف متعبة مرهقة بعد عبور البحر، فما أن تجد الأرض حتى تحط فإذا لاحت تباشير الربيع عادت إلى اجتياز سيناء في طريقها إلى البحر تعبره إلى حيث تقيم^(١).

وهذا العطاء الزاخر من قبل الله لبني إسرائيل لم يكن لإيمانهم النظري بموسى ﷺ كما تصوروا، أو أن الله يمنحهم الحياة الجميلة بالمجان، وأنهم بمجرد أن آمنوا بالله وبمجرد الاستجابة النظرية للنبي تكفي لاستئصال كل الخير إليهم^(٢).

بل إن توفير مستلزمات الاحتياج من غذاء وماء وما شابه حتى يقوم الإنسان بدوره ووظيفته في الحياة، فالغذاء ليس سوى غريزة، الهدف منها توفير الطاقة للجسم حتى يعمل، وحينما يتحول الغذاء إلى غاية ليحصل الإنسان على التلذذ، فحقيق بالمرء أن يربط مع العجاوات.

لقد تحول الغذاء عند بني إسرائيل من حاجة غريزية ووظيفة بيولوجية إلى عنصر للذة والهوى، وكلاً منهما لا يتحقق إلا بالتفنن والتنوع في الأطعمة، حتى يصبح المقياس في الطعام هو التذوق والتنوع وليس الجودة والنوعية ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا

(١) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج ٢، ص ٣٤٤.

(٢) راجع دراسات ثقافية، مجلة الشهيد.

مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴿١﴾.

وهل تركيز الاهتمام على أنواع الأطعمة عند بني إسرائيل ناشئ من حياتهم في مصر في ظل فرعون؟

ليس ببعيد، وذلك لأن المستكبرين يعمدون إلى إلغاء دور العقل من حياة الإنسان، وجعل التعامل بصورة خاصة وعامة من خلال الأذواق والأحاسيس، وجعل الإنسان حسي ابن واقعه لا يقوى على تجاوز عاداته وتقاليده وأعرافه التي صنعها الفراعنة (٢).

وعلى كل حال، ليس هناك من ريب في أن ذلك إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن اليهود إنما كانوا يفضلون الحياة الذليلة تحت سياط الرق والاستعباد بجوار قدور اللحم على حياة الحرية والكرامة (٣).

وفي سيناء يقع مسلسل الانحراف العقائدي عند بني إسرائيل، الذي بدأ بسؤال موسى ﷺ عن إله يصنعه لهم ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامَ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (٤).

والواقع كان بنو إسرائيل تحت تأثير امتدادات الديانة المصرية، تلك الديانة التي تمكنت في نفوسهم إبان إقامتهم الطويلة في مصر،

(١) سورة البقرة، الآية ٦١.

(٢) المجتمع الفرعوني، ص ١٨٠.

(٣) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج ٢، ص ٣٤٤.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٣٨.

والتي جاوزت قروناً أربعة. وكثيراً ما عبد المصريون الأشياء الجامدة لا سيما في عهد الأسر الأولى... وفي معظم الحالات تظهر صورة الحيوان، فيتخذ الإله إما صورة حيوانية أو يرتبط بالإله الثور أو العجل (أپيس apis) أو على هيئة جسم إنسان ورأس حيوان^(١).

وحينما رأوا قوماً يعبدون مثل تلك المعبودات فقد حدث لهم شكل من أشكال التداعي في الأفكار، فاستذكروا معبوداتهم البالية للتشابه، تماماً كالهر الذي يذكر المرء بالنمر ويوليوس قيصر يذكر بالإسكندر^(٢).

وفي فتنه رداح عظيمة، قرع هارون عليه السلام لها ساقه حيث ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمَ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣).

والوارد أنه لما ذهب موسى عليه السلام عن بني إسرائيل إلى ميقات ربه لما وعده الله تعالى من إنزال التوراة عليه، وقد خلف هارون عليه السلام عليهم، وكان قد وعدهم بكتاب من ربهم، فمضى لما وعدهم به وقد عيّن لهم ثلاثين يوماً يغيب عنهم.

فذهب ولم يرجع إليهم على الموعد المؤقت بل تأخر على تمام الأربعين يوماً، فقالوا إن موسى هرب منا وكذب علينا، وهموا

(١) المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ٤٣.

(٢) علم النفس، جميل صليبا.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٤٢.

بقتل هارون ﷺ ولم يقبلوا منه عذراً، وتكلم معهم دون أن يسمعوا له قولاً، حتى صنع السامري العجل، وألقى القوم مراسيهم ساجدين للعجل، فقال هارون ﷺ: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ (١).

وليس هناك من ريب في أن هذا إنما كان مرة أخرى من تأثير الوثنية المصرية على بني إسرائيل، ذلك أن عبادة العجل في مصر جد عميقة الجذور إذ ترجع إلى ما قبل عصر موسى ﷺ بكثير إلى أيام الأسرى الأولى حوالي عام ٣٢٠٠ ق.م ثم استمرت حتى ظهور المسيحية وغلبتها عليها، ويذهب والتر إسري إلى أن العجل كان في نظر القوم رمزاً للقوة في الحروب كما أنه رمز للإخصاب في نفس الوقت، وأن عبادته بدأت منذ أيام الأسرة الأولى اعتماداً على تصوير ملوك هذه الأسرة على هيئة ثيران (٢).

ويمكن أن تتعقب الديانة المصرية إلى أصولها فيما قبل التاريخ حتى فترة مبكرة تصل إلى عام ٤٠٠٠ ق.م عندما كان الاعتناء بدفن الثور وابن آوى وغيرهما من الحيوانات أموراً تدل على عبادة الحيوان (٣).

أوحى الله تعالى إلى موسى ﷺ: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ

(١) سورة طه، الآيتان ٩٠-٩١.

(٢) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج ٢، ص ٣٥١.

(٣) المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ٤٣.

يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿١﴾ ثم رمى الألواح من يده وألقاها على الأرض، وأخذ بلحية أخيه هارون عليه السلام ورأسه يجره إليه وقد زلج من فيه كلام: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (٢).

فرد هارون عليه السلام: ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (٣) والنفت موسى عليه السلام للسامري سائلاً عن سر مجيئه بذات الرعد والصليل: ما خطبك يا سامري؟

قال: بصرت بما لم يبصروا به فقبضت من أثر الرسول فنبذتها.

قيل إن السامري كاذب في قوله، وأنه ما بُصر بشيء ولا قبض شيئاً من أثر الرسول وإنما أراد التهرب من تبعة ما حدث، وهذا أرجح الأقوال وأقربها إلى الأفهام من رجل جبريل وحافر فرسه (٤).

أما عقاب جريمة كفرهم هذه فقد كان أشد وبالاً ونكالاً من المحن الأخرى التي تعرضوا لها على يد فرعون، فها هم الآن يقتلون أنفسهم بأنفسهم ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ

(١) سورة طه، الآيتان ٨٥-٨٦.

(٢) سورة طه، الآيتان ٩٢-٩٣.

(٣) سورة طه، الآية ٩٤.

(٤) تفسير الكاشف، ج ٥، ص ٢٤٠.

بَارِكُكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾.

وهكذا مارس بنو إسرائيل انحرافين متشابهين كان الأول على مستوى الطلب والسؤال، وكان الثاني على مستوى التنفيذ العملي لذلك الانحراف، أما علاج موسى ﷺ للانحراف الأول:

فالعلاج يسير في اجتثاث الجذور الصنمية على المستوى الروحي لبني إسرائيل وليس هناك رموز بشرية أو صنمية اتخذها بنو إسرائيل كي يسير العلاج في خط العنف والحسم لتلك الرموز كما هو في الانحراف الثاني.

فصيغة العلاج كانت:

١ - التنبيه على أن هذه الصنمية مهلكة لروادها.

٢ - تذكيرهم بأن لهم رب عظيم هو الله فهم لا يعيشون حالة الخواء الروحي، والعقيدي والذي يدفع بأصحابه إلى اختلاق الآلهة المزيفة.

٣ - التذكير بفضل الله عليهم إذ أنقذهم من فرعون.

وهذا العلاج الهادئ كفيل برد البعض، أما علاج موسى ﷺ للانحراف الثاني:

١ - نسف العجل الإله المزعوم، وذّر رماده في البحر، وهذه الخطوة ضرورية إذ بدون القضاء على رموز الشرك المادية لا يمكن

تصفية الجذور النفسية والفكرية للإنسان، فحين يرى المشرك أن إلهه المزعوم يُحرق ويُذَر رماداً يكتشف زيف هذا الإله.

٢- عزل السامري، فالرجل تشرب بالأفكار الصنمية ولا يستطيع أن يتعامل مع الرب إلا من خلال شريك صنمي معه، إذن لابد من عزله عن البنية الاجتماعية.

٣- استجواب هارون عليه السلام حول دوره في بني إسرائيل ^(١).

بالطبع كل ذلك مع عملية العقاب الإلهي بقتل بعضهم بعضاً.

ولما سكنت عن موسى عليه السلام الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة، وصار يشرح لبني إسرائيل ما فيها، بعدها قام موسى عليه السلام بعملية معينة حتى يعرف بنو إسرائيل أن الله ليس جسماً ولا يمكن أن يُرى فطلب رؤية ربه ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ ^(٢).

حين طلب موسى عليه السلام من ربه بأن ينظر إليه كانت دعوته هذه بهدف صنع واقعة عينية تذهب مثلاً في الآفاق وتتناقلها الألسن حتى تنتزع من النفوس جذور المادية، ولذلك طلب موسى عليه السلام المستحيل وهو رؤية ربه، وتجلى الله للجبل وجعله دكاً متهاوياً على نفسه ووقع موسى مغشياً عليه ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ

(١) دراسات ثقافية، مجلة الشهيد، عدد ١٧١.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

المؤمنين.

ويبقى السؤال: ما هي مناسبة اندكاك الجبل مع استحالة النظر إلى الله؟

الجواب: إن قدرة الإنسان محدودة بشكل أنه لا يتحمل رؤية جبل يندك وهو أهون شيء في ميزان قدرات الله سبحانه التي لا تحد فكيف يرى الله؟ ويُنظر إليه وهو مبعث القدرة والحكمة والعظمة و... و...^(١).

وفي ظرف آخر أراد موسى ﷺ الرجوع إلى جبل الطور للمناجاة طلب منه قومه أن يسمعهم الله تعالى كلامه كما يسمع موسى ﷺ ووقع الاختيار على سبعين رجلاً منهم وهم النخبة والصفوة، فلما سمعوا ذلك حاروا وطاشوا وتشوشوا وتاهت عقولهم فلم يؤمنوا بأن هذا الذي سمعوه هو كلام الله تعالى سوى المؤمنين الخُص منهم، وطلبوا أن يريهم الله جهرة، والوارد أنهم لما ألحوا في الطلب تجلى الله تعالى بنوره إلى الجبل فاندك فصعقوا جميعهم وماتوا ثم بعثهم بعد موتهم^(٢). ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(٣).

ومما استدل به على عدم رؤية العين لله، أن العين لا ترى الشيء إلا بشرطين، الأول أن تكون أهلاً للنظر، والثاني أن يكون الشيء أهلاً لأن ينظر بالعين، وهذا شيء بديهي فإذا فقدت العين أهلية النظر أو

(١) من هدي القرآن، ج ٣، ص ٤٣٩.

(٢) انظر الأنبياء، حياتهم - قصصهم.

(٣) سورة البقرة، الآية ٥٥.

لم يكن الشيء مؤهلاً للنظر بالعين انتفت الرؤية قهراً، والعين أصغر وأحق من أن ترى الذات القدسية الأحدية كما أنه جلّ وعلا أعظم من أن يُرى بالعين^(١).

كل ما مضى كان على الصعيد الحياتي والعقائدي، أما على مستوى كيانهم ومستقبلهم، فقد ورد أن خروجهم من مصر كانت الغاية منه الانتقال إلى الأرض المقدسة، وهي بلاد الشام، وقد كانت تحت حكم الفراعنة، فامتنع بنو إسرائيل من دخولها بحجة ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾^(٢). فعاقبهم الله بالتيه أربعين سنة ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٣).

أما سبب التيه أربعين سنة في البرية فهو موضع خلاف بين العلماء، فهناك من يرى أنها كانت بسبب خوف الإسرائيليين من المصريين وانتظاراً للوقت المناسب الذي تضعف فيه السيادة المصرية على كنعان فيدخلونها آمين.

إن التيه إنما كان لإفناء أبناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وإنشاء جيل آخر عزيز لا يعرف الإحكام والقهر، يسأم الذل والهوان^(٤).

وعلى كل حال، فموقفهم من دخول كنعان - فلسطين - بالرغم

(١) تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٠٨.

(٢) سورة المائدة، الآية ٢٢.

(٣) سورة المائدة، الآية ٢٦.

(٤) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج ٢، ص ٣٧٧.

من نداءات موسى ﷺ ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾^(١) يكشف عن أمرين:

١- عن نفسيتهم التي تعودت على رفض التشريعات التي تكلفهم ببذل جهد في سبيل بناء حياتهم لأنهم يريدون الظفر بمكاسب جوهريّة دون عمل، فهم يريدون الغذاء الفاخر دون عمل، أما التشريع الذي يطالبهم بالجهد أو يطالبهم بشروط بسيطة لا ينفذونها، إنما يريدون عطاء دون تكليف^(٢).

٢- إنهم أناس قد شربوا كأس الذل والهوان، فلا ينفذون الأوامر إلا إذا كانت بمنطق القهر والقوة كأسلوب الفراغة، أما منطق القوة المعنوية التي كان يعتمد عليها موسى ﷺ باعتباره رسول الله، فما كانوا يستجيبون له، وبهذا نستطيع أن نفسر كيف قبلوا الخضوع عقوداً من الزمن لفرعون، ورفضهم المستمر لأوامر موسى ﷺ.

(١) سورة المائدة، الآية ٢١.

(٢) دراسات ثقافية، مجلة الشهيد، عدد ١٧١.

البقرة تنتظر سكين الأباقة

يجتمع بنو إسرائيل بموسى ﷺ، وقد ضجوا وبكوا على قتلهم الذي قيل إنه قتل على يد ابن عمه حين حسده على امرأة تزوجها، وفي رواية أخرى أن القتل كان شيخاً كبيراً ذا مال موسر، وقد قُتل طمعاً في ميراثه، فقال لهم موسى ﷺ بصرامة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾^(١).

والقصة التي نحن في صدد الحديث عنها تبدأ في القرآن الكريم من الوسط، وهو الأمر بذبح البقرة، في حين أن أول الحدث قتل الإسرائيلي حيث جاء في الآية الأخيرة من حيث التسلسل ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾^(٢).

إن الأمر بذبح البقرة يمثل الابتداء به في القصة ظاهرة تنطوي على الخطورة دون أدنى شك، إن القارئ ليتحسس بهذه الخطورة لجملة من الأسباب، منها أنها تشكل أمراً من السماء، ومجرد كونه أمراً

(١) سورة البقرة، الآية ٦٧.

(٢) سورة البقرة، الآية ٧٢.

من السماء كافٍ باستشعار الخطورة^(١).

تعجب بنو إسرائيل، متهمين موسى ﷺ بالتعجرف وعدم التروي وقالوا له: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾^(٢) نأتيك بقتيل فتقول اذهبوا بقرة؟! بقرة!

موسى ﷺ عجب نفسه عنهم، ولم يؤاخذهم حيث قال: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣).

عاد القوم إلى عبقريتهم المعهودة قائلين: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾^(٤).

فقال ﷺ: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾^(٥)، «أي لا مسنة ولا فتية بل هي متوسطة».

تواصل عبقرية الاهتمام بالملامح الخارجية متناسية محور الحكم (الذبح) حيث قالوا له: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْ نُهَا﴾^(٦).

- ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْ نُهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ﴾^(٧).

(١) دراسات فنية في التعبير القرآني، ص ٥٦.

(٢) سورة البقرة، الآية ٦٧.

(٣) سورة البقرة، الآية ٦٧.

(٤) سورة البقرة، الآية ٦٨.

(٥) سورة البقرة، الآية ٦٨.

(٦) سورة البقرة، الآية ٦٩.

(٧) سورة البقرة، الآية ٦٩.

عباقرة الجدل وأباقرة البشر ما زالت البقرة مجهولة في أذهانهم، حقاً إنهم عباقرة لأنهم يطلبون ما لا يُطالبون به ولكنهم أباقرة وإلا لأجروا أصالة البراءة في الزائد من الصفات، قالوا له: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾^(١).

رد عليهم: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لَا شِئَةَ فِيهَا﴾^(٢)، «أي لم تذلل بالحرث ولا تسقي الزرع ولونها ذات لون واحد لا نقط فيه».

إن تلك التفصيلات التي تناولت الملمح الخارجي للبقرة حاول البعض أن يكتشف مدلولاتها، ودوافع بني إسرائيل في الدخول في تفاصيلها، وقد تعددت تلك التفسيرات نجملها هنا:

١ - التنصل من تنفيذ الأمر، حيث كانوا يبحثون عن الحجة التي تبرر لهم الامتناع عن أداء الأوامر وامثالها، وذلك بإثارة الفضول أمام النبي، مما يدخل القضية في نطاق المناقشات الجدلية التي تُفقد الموقف روحانيته وحيويته وجديته، وتؤدي بالنتيجة في زعمهم إلى انسحاب النبي من الساحة وإلغاء الأمر من خلال الحالة النفسية التي تثيرها هذه الأجواء في نفسه^(٣).

٢ - التشكيك، فهذه التفصيلات تنطوي على التمرد والتشكيك

(١) سورة البقرة، الآية ٧٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ٧١.

(٣) من وحي القرآن، ج ٢، ص ٨٩.

وتحفظ بليد^(١).

٣- التثبيت بالقشور وترك الجوهر، فقصة البقرة تدل على أن بني إسرائيل لم يصبحوا آنئذ كفاراً بالرسالة جملة واحدة، بل بالعكس كانوا يريدون تطبيق تعاليم الله، بيد أن التردد والضعف واضح في تصرفاتهم مما يجعلهم يؤخرون تنفيذ الواجبات تحت غطاء التثبيت بقشور التعاليم، فهم كانوا يتساءلون عن لون البقرة وطبيعتها ومقدار عمرها وسائر خصائصها، بينما تركوا الجوهر وهو ذبح البقرة^(٢).

وعلى كل يظهر أن غرض بني إسرائيل من طلب التفصيلات هو عدم استعدادهم لذبح البقرة، بدلالة قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٣).

وذلك لتشكيكهم بإمكانية حدوث المعجزة، فأخذوا في التواني والجدل.

وهذه القصة تكشف من جديد طبيعة تعامل بني إسرائيل مع موسى الكليم ﷺ وتوضح لنا الطريقة التي يواجهون بها الأوامر الصادرة من موسى ﷺ إليهم، مما يوحي بطبيعة المشاغبة التي تجعلهم يواجهون القضايا من موقع التعقيد لا من موقع التبسيط فيحولون مهمة النبي في قيادته الفكرية والعملية إلى مهمة صعبة^(٤).

(١) دراسات فنية في قصص القرآن الكريم، ص ٢٦.

(٢) من هدى القرآن، ج ١، ص ١٦٨.

(٣) سورة البقرة، الآية ٧١.

(٤) من وحي القرآن.

وانسحب تعاملهم السليبي مع موسى ﷺ إلى التمرد على الأحكام والتواني عن تطبيق الأوامر.

والمنقول أنهم لم يجدوا بقرة تجمع تلك الأوصاف إلا عند فتى بار بأبيه واشتروها بملء جلدها ذهباً وذبحوها وقالوا له: ما تأمرنا يا نبي الله.

فأوحى الله تعالى أن اضربوه ببعضها، وقالوا للقتيل: من الذي قتلك يا فلان؟

حينئذ نطق باسم قاتله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١).

لقاء عند الصخرة

ورد أن موسى ﷺ سأل ربه: أي عبادك أعلم؟ فقال سبحانه: الذي يتبغى علم الناس إلى علمه فعسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو تردّه عن ردى. فقال: إن كان في عبادك من هو أعلم مني فأدللني عليه فقال له: أعلم منك الخضر، فقال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة.

قال: كيف لي به؟ فقال له: تأخذ حوتاً في ممتلك فحيثما فقدته فهناك تلقاه، فقال موسى لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني فذهبا يمشيان ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾^(١).

فنسي موسى ﷺ أن يطلبه ويتعرف حاله ونسي فتاه أن يذكره له وأن يخبره بما رأى من حياة الحوت وذهابه في البحر، ولما جاوزا الصخرة قال لفتاه: ﴿أَتَيْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾^(٢).

(١) سورة الكهف، الآية ٦١.

(٢) سورة الكهف، الآية ٦٣.

قال: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾^(١).

وقبل الولوج في تفاصيل هذا اللقاء جدير أن نذكر أن بيان هذه الحادثة في القرآن ومثيلاتها تؤكد على إعجازية القرآن الكريم، لأن الآيات التي تحدثت عن تاريخ الأنبياء أو الأمم السابقة وما مرت بهم من وقائع وأحداث أنها قد جاءت بأخبار وصور وتفاصيل لم تكن بيئة النبي العربي الوثنية والأمية تعرف شيئاً عنها حيث أنه لم تكن هناك أي وسيلة اعتيادية تفسر اطلاع النبي شخصياً على تاريخ وأحداث الأمم التي سبقتها.

وما يلفت الانتباه أيضاً أن الأحداث والقصص التاريخية في القرآن لم تكن مجرد استنساخ لما جاء في كتب العهدين الإنجيل والتوراة، وإن كان القرآن قد أعطى الرسول كثيراً مما في التوراة والإنجيل، ولم تكن هذه الكتب قد ترجمت إلى العربية في ذلك العصر حيث أن أول نص مسيحي ترجم إلى العربية هو مخطوط بمكتبة القديس بطرس بروج قد كُتب حوالي ١٠٦٠ م^(٢).

وأما عن شخوص وأبطال هذه القصة فقد اختلفوا حولهم،

(١) سورة الكهف، الآيات ٦٣-٦٦.

(٢) النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ، ص ٢٤٧.

فهل بطل القصة الأول هو موسى بن عمران أو غيره؟ نقل الرازي عن اليهود أنه موسى بن ميثا بن يوسف بن يعقوب، وهو أقدم من موسى بن عمران، وأكثر العلماء والمفسرين على أنه ابن عمران الشهير وهو الظاهر.

أما فتاه فالمعروف أنه يوشع بن نون ابن أخت موسى بن عمران وتلميذه المقرب وخليفته من بعده على بني إسرائيل، أما الذي قال له موسى: ﴿هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾^(١) فالمعروف بين الناس أنه الخضر ولكن الله سبحانه سكت عن اسمه واسم فتى موسى، وقيل إن الخضر لقب، أما اسمه فبليا بن ملكان واختلفوا: هل هو نبي أو ولي؟ وأيضاً قيل: إنه من المعمرين الأحياء إلى يوم يبعثون، أما نحن فنلتزم السكوت عن نبوته وحياته إذ لا دليل قاطع للشك من الكتاب أو السنة على واحدة منهما، ولا يمتان إلى عقيدتنا وحياتنا بصلة، وقال البعض: إنه من الملائكة، وهذا من أبعد الأقوال^(٢).

ولأهل الكتاب رأي ملخصه أنهم لا يسلمون أنه موسى بن عمران لأنهم لا تسمح أنفسهم بالقول بتعلم نبهم الأفضل ممن ليس مثله في الفضل، وقال بعض المحققين ليس إنكارهم لمجرد ذلك بل لقولهم إن موسى ﷺ بعد الخروج من مصر وقع هو وقومه في التيه وتوفي فيه ولم يخرج قومه منه إلا بعد وفاته^(٣).

(١) سورة الكهف، الآية ٦٦.

(٢) تفسير الكاشف، ج ٥، ص ١٤٣.

(٣) الخضر بين الواقع والتهويل، ص ٩٠.

وعلى كل حال، قال العبد الصالح: إنك لن تستطيع معي صبراً، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً. فقال موسى ﷺ: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً، قال: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً.

ومروا ثلاثتهم حتى انتهوا إلى ساحل البحر وقد شحنت سفينة وهي تريد أن تعبر، فقال أرباب السفينة نحمل هؤلاء النفر فإنهم قوم صالحون، فحملوهم فلما جنحت السفينة في البحر قام الخضر إلى جانب السفينة فكسره، وحشاه بالخرق والطين، فغضب موسى ﷺ غضباً شديداً، ولذا لم يسأل حتى لماذا خرقها؟ بل أنكر الموضوع رأساً ولم يسكت على ذلك وإنما أعطى للعمل صبغة وهي أنه لم يخرقها إلا ليغرق أهلها ﴿قَالَ أَخَرَقْتُهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا﴾^(١).

فقال له الخضر: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً. قال موسى: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً. ثم إنهم خرجوا من السفينة فنظر الخضر إلى غلام يلعب بين الصبيان فأخذه وقتله، فتغير موسى وغضب وقال له: ﴿أَقْتُلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾^(٢).

فقال له الخضر: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً، فقال موسى: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، قد بلغت من لدني عذراً، فانطلقا إلى بلد فلم يضيفوهما ولم يضيفوا أحداً قط، ولم

(١) سورة الكهف، الآية ٧١.

(٢) سورة الكهف، الآية ٧٤.

يطعموا قريباً، فاستطعموهم فلم يطعموهم ولم يضيفوهم فنظر الخضر إلى حائط قد مال وزال عن موضعه وكاد أن ينهدم فوضع الخضر يده عليه وقال له قم بإذن الله فأقامه واقتلعه وأزله عن مكانه^(١).

فقال له موسى: لو شئت لاتخذت عليه أجراً، لم ينبغي أن تقيم هذا الجدار حتى يطعمونا ويروونا، فقال له الخضر: هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم يستطع عليه صبراً.

أما السفينة التي خرقتها وكسرت شيئاً من طرفها فهي لقوم مساكين يعملون عليها ويتعيشون بسببها في البحر فأردت أن أعيها وكان وراء السفينة ملك يأخذ كل سفينة غصباً، وإذا كان السفينة معيبة لم يأخذها ولا طمع له بها، أما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أني يرهقهما طغياناً وكفراً، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً.

عن الحسن بن سعيد اللحامي قال: ولدت لرجل من أصحابنا جارية فدخل على أبي عبدالله فرآه متسخطاً لها، فقال له أبو عبدالله: رأيت لو أن الله أوحى إليك إنني أختار لك أو تختار لنفسك، ما كنت تقول؟ قال: كنت أقول يا رب تختار لي، قال: فإن الله قد اختار لك، ثم قال: إن الغلام الذي قتله العالم حين كان مع موسى في قول الله: ﴿فَارْزُقْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ قال فأبدلهما جارية ولدت سبعين^(٢) نبياً^(٣).

(١) الأنبياء قصصهم - حياتهم، ص ٣٦٥.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٣١١.

(٣) لعل المقصود من صلبها .

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما.

وهكذا إذا عمل الإنسان عملاً صالحاً فإن الله يكرمه ليس في ذاته فقط وإنما في أبنائه أيضاً، وإن كثيراً من حكم الحوادث في الحياة التي تقع دون أن نعرف طبيعتها مرتبطة ليس بالشخص ذاته وإنما مرتبطة بشخص آخر.

فلربما أكرم الله مريم الصديقة وأنشأها ورباها منذ نعومة أظفارها تلك التربية الزكية بسبب والدتها التي نذرت ما في بطنها محرراً.. عن الصادق عليه السلام: «إن الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده ويحفظه في دويرته ودويرات حوله فلا يزالون في حفظ الله لكرامته على الله»^(١).

والملاحظ أن منشأ الأحكام التي تبناها موسى عليه السلام والنفس الصارم الذي ارتسمه لم يختلف عن المواقف السابقة، فهي هي ينفر من كل ما يراه انحرافاً، ويتخذ الموقف المتشدد، وبلسان حديد بالرغم من أنه وعد ولأكثر من مرة على عدم إبداء موقف، وإن دلّ هذا الأمر، فإنما يدل على أن لمشاغلتنا الحاضرة أثراً في انتخاب الأحكام، كما أن لقانون الاهتمام عملاً، ولذلك قال الحكماء، الحكم لا يدل على علاقة بين الأشياء المستقلة بل يدل على علاقة بينا وبين الأشياء^(٢).

(١) من هدى القرآن، ج ٦، ص ٤٦٧.

(٢) علم النفس، ص ٥٣٣.

وفي قصة موسى الكليم ﷺ مع العبد الصالح دروس في الاتجاه العلمي وأخرى بالاتجاه الأدبي والتربوي، نحاول أن تعرض لها:

١- أن ما يُصاب به كثير من الناس من سوء التقدير يعود في الأساس إلى عدم المعرفة التامة الحقيقية بجوانب الموضوع حيث يبنى الإنسان حكمه على ما يشاهده ويشعر به ولذلك يخطئ كثيراً ويتعثر كثيراً وإنه لو انكشفت له حقائق الحياة وبواطن الأمور وعواقبها لتغير حكمه كثيراً ونقض ما أبرم. وعليه فلا يصح الإسراع في الحكم والإلحاح على سواغ الآراء فإن الحياة غامضة ملتوية وإن الكون واسع فسيح^(١).

وفي هذا السياق نذكر حرمة قياس مظنون العلة لعله يعود لمثل هذه العوامل، قال الصدوق إن موسى ﷺ مع ما لعقله وفضله ومحلّه من الله تعالى ذكره لم يستدرك باستنباطه واستدلاله معنى أفعال الخضر حتى اشتبه عليه وجه الأمر فيه، وسخط جميع ما كان يشاهده حتى أخبر بتأويله فرضي، ولو لم يخبر بتأويله لما أدركه ولو بقي في الفكرة عمره، فإذا لم يجز لأنبياء الله ورسله صلوات الله عليهم القياس والاستنباط والاستخراج كان من دونهم من الأمم أولى بأن لا يجوز لهم ذلك^(٢).

٢- على المرء أن تحمل مسؤولية تعليم نفسه وتثقيفها ومن لا يتحمل مسؤوليته في الوصول إلى المعرفة فإنه يظلم نفسه ويكون مثله

(١) الخضر بين الواقع والتهويل، ص ١٠١.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٢٨٩.

كمن يفقأ عينه أو يسدّ أذنه أو يبльд أحاسيسه^(١) ولو تطلب ذلك الجهد والمشقة، وقد عرف موسى ﷺ أن الحصول على العلم لا يمكن أن يتم بدون مجهود لذلك عرض إتباعه للعالم.

٣- يعجب البعض التأكيد على المفاضلة بين العلماء، فيرفع ذاك ويحط من ذاك، وقد يكون لمثل هذه المفاضلة أهمية واقعية كمسألة التقليد، والكلام ليس هنا، بل أن يصبح هذا المقياس مانعاً من الاستفادة من مجموع العلماء، فلا يصح أن يكون عنوانا الأعلّم صنم يمنع من مدّ الجسور مع غير الأعلّم.

خصوصاً أن هذا العلم قد يكون عنده علم لا يعلمه ذاك، وذاك على علم لا يعلمه هذا، وفي هذا السياق قد أكثر البعض من الكلام في من هو أعلّم أهو الخضر أم موسى ﷺ لدرجة نشأت من هذا الموضوع اعتقادات فاسدة مثل الإيمان بوجود عباد الله ليسوا بأنبياء ولا أوصياء ولا شهداء هم خير من الأنبياء حتى أن الأنبياء يغبطونهم، كل ذلك بناءً على أن الخضر هو ولي وأعلّم من موسى ﷺ.

٤- على المرء أن يكون مُحصّد الرأي، سديد التفكير، وذلك عبر الجدّية في التحصيل، وأول جزالة الرأي أن لا يزعم أنه حصل من العلم على أكثر مما حصل عليه سواء، وإلا فإنه يحكم على نفسه بالجهل والجمود، فإذا كان قد وصل إلى القمة فليس بعد القمة مكان يرقى إليه وإنما مصيره أن يتجه إلى النزول من فوق القمة^(٢).

(١) من هدى القرآن، ج٦، ص٤٤٢.

(٢) القصص القرآني، تفسير اجتماعي، ص١٦٧.

إن مكان العظة في هذه القصة أن لا يعجب المرء بنفسه ولا يبادر إلى الحكم على الشيء حكماً مطلقاً وهو لا يعرف إلا جهة واحدة من جهاته بل لابد من ملاحظة جميع الجهات بدقة^(١).

(١) تفسير الكاشف، ج ٥، ص ١٥١.

قارون يتحدى

شنّ قارون حرباً غير معلنة على موسى ﷺ حاول خلالها إسقاط النبي ﷺ من خلال بثّ الافتراءات والإشاعات، على نحو قصة المرأة التي اتفق قارون معها أن تعترف على موسى ﷺ بالفجور^(١) ويزداد تحديه بموسى ﷺ حين بلغه موسى ﷺ حكم الزكاة فاستهزأ به وأخرجه من داره^(٢).

ويصل الأمر بقارون أن يخرج متباهياً ويظهر نفسه بمظهر العظمة، وقد ورد في الأخبار أنه لم يكن يخرج إلا مع أربعين فارساً قد لبسوا زياً واحداً^(٣) مما أحدث خلخلة في نظام بني إسرائيل، وأخذ بعضهم يتطلع إلى إمبراطورية قارون المالية ويتنصل من إمبراطورية القيم السماوية (التعبير للمشكلة).

في مصباح الشريعة، قال الصادق ﷺ: «فساد الظاهر من فساد الباطن ومن أصلح سريره أصلح الله علانيته، ومن خان الله في السر

(١) تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٨٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) من هدى القرآن، ج ٩، ص ٣٧٩.

هتك الله سره في العلانية، وأعظم الفساد أن يرضى العبد بالغفلة عن الله تعالى.. وكانت هذه الخصال الخمس من أوصاف قارون وأحواله وأصلها يرجع إلى حب الدنيا»^(١).

وأخيراً إن أهم ما نستفيده من هذه القصة:

١- من الناحية النفسية يجب أن لا نخدعنا الثروة وتبعدنا عن هدفنا الأكبر وهو الآخرة، فلقد كان بإمكان قارون الذي يعجز عن حمل مفاتيح خزائنه الرجال الأقوياء أن يجمع آخرته إلى دنياه ولكنه حينما قيل له ذلك رفض وقال: إن الأموال التي حصلت عليها كانت نتيجة جهدي وعملي وأنكر فضل الله فخرس الدنيا والآخرة.

٢- من الناحية الاجتماعية يجب أن نلتف حول الأشخاص لما يحملونه من رسالة صالحة وما يجسدونه من صفات سامية وليس لأموالهم وسلطتهم، قال علي عليه السلام: «من أتى غنياً فتواضع له ذهب ثلثا دينه»^(٢).

٣- إن الذي يستفيد من الثروة في غير أهدافها كما لو استخدمها للتباهي والتفاخر يخسر الآخرة كما لا يتنعم بثروته في الدنيا بل يخسرها، إن هدف الثروة هو عمارة الأرض فإذا استخدمناها للتعالي على الناس والفساد في الأرض فسوف يكون مصيرنا ما انتهى إليه قارون الذي خسف به في الدنيا وفي الآخرة من الخاسرين»^(٣).

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٧.

(٢) نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥٠.

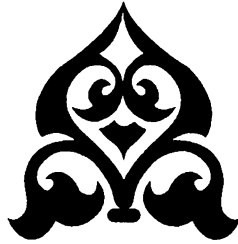
(٣) من هدي القرآن، ج ٩، ص ٣٧٧.

عندما تغيب الشمس

من المتسالم عليه أن هارون ﷺ قد عدسته المنية قبل أخيه موسى ﷺ، بعدها غاب موسى ﷺ عن قومه حيث دفنه وسوى عليه التراب ملك في صورة آدمي، وصاح صائح من السماء مات موسى كليم الله، فأى نفس لا تموت فسبحان الحي الذي لا يموت ولا حول ولا قوة إلا بالله العليم العظيم^(١).

نعم لقد مضى لربه، وخلد في ذاكرة التاريخ، ليس فقط كرسول عظيم بل كمجاهد رامى عن قومه حتى زهرت به نارهم، ورتق فتقهم ورأب صدعهم، حتى آخر حياته، معطياً درساً خلاصته، كل شيء شوى ويسير ما يسلم لك دينك وعرضك.

(١) الأنبياء قصصهم - حياتهم، ص ٣٦٩.



عيسى النبي ﷺ

المسيح في القرآن والأنجيل

مدخل

قصة عيسى ﷺ النبي ليست سوى قصة الأديان، حيث تركز الاختلاف بين الديانات على عهد المسيح ﷺ، فالمسيح من جهة في القرآن ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(١) في المقابل اعتبره المسيحيون إلهاً ابن إله، وقالت عنه اليهود ما تهتز له السموات والأرضين، فكان لابد من عرض لبعض الاختلاف بين الأديان، محاولين ألا نخرج عن الهدف المنشود، وهو الحديث عن سيرته الذاتية ودعوته الربانية.

ولعل قصة هذا النبي العظيم تمثل بوابة الدخول بحث مهم، وهو بحث الأديان السماوية وبالخصوص المسيحية والتي أصبح الجهل بها لا يغتفر، حيث العالم أصبح قرية واحدة تدامجت فيه الثقافات.

مريم العذراء في سطور

أوحى الله إلى عمران إني واهب لك ذكراً سوياً مباركاً يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله وجاعله رسولاً إلى بني إسرائيل، فحدث عمران امرأته حنة بذلك، فلما حملت كان حملها عند نفسها غلاماً^(١).

ومات عمران وحنة حامل فنذرت حملها لخدمة البيت المقدس وتضرعت خالصة إلى الله أن يتقبل نذرها ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢).

وفي كلامها هذا دلالة على أنها تعتقد أن ما في بطنها ذكراً لا أنثى، حيث تناجي ربها عن جزم وقطع من غير اشتراط وتعليق، حيث تقول نذرت لك ما في بطني، من غير أن تقول مثلاً إن كان ذكراً ونحو ذلك^(٣).

(١) تفسير الميزان، ج ٣، ص ١٨٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٣٥.

(٣) تفسير الميزان، ج ٣، ص ١٧٠.

وفي نذرها هذا الذي كان جائزاً في دينهم ولا يجوز في دين الإسلام تكتشف في هذه المرأة إنسانة تعيش العلاقة بالله كأروع ما تكون العلاقات وكأصفى ما تكون المشاعر وكأعظم ما تتحرك الأفكار، فهي تفكر في المستقبل الحياتي لذريتها من خلال الله لتقربهم إليه وتبعدهم عن الشيطان^(١).

ولما وضعت ذات حملها توجهت لله قائلة: ﴿إِنِّي وَصَّعْتُهَا أَنْثَى... وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾^(٢) ومريم في اللغة العبرية بمعنى خادم الرب^(٣) وتقبل الله نذرها وإن كان أنثى، واختلف بنو إسرائيل أيهم يكفل مريم ويدير شؤونها.

فلما اشتدت الخصومة فيما بينهم اتفقوا على الاقتراع فكانت من نصيب زكريا زوج خالتها (فمريم ويحيى ابنا خالة وليس عيسى ويحيى ابني خالة كما هو معروف)^(٤).

وكان آنذاك رئيس الهيكل اليهودي^(٥) فاهتم بها وتفقد شؤونها، وكان كلما دخل عليها وجد عندها طعاماً وعهده بها أن لا يدخل عليها أحد فسألها متعجباً ﴿أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(٦) أي بلا واسطة أحد من الناس.

(١) من وحي القرآن، ج ٥، ص ٣٤٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٣٦.

(٣) تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٤٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) سورة آل عمران، الآية ٣٧.

والمنقول من أنه كانت العذراء البتول تخدمهم إلى أن بلغت مبالغ النساء فمنعها وحجبها زكريا واتخذ لها حجاباً دون العباد^(١).

وملخص الحديث عن مريم العذراء صاحبة المقام الرفيع عند الله أن الملائكة كانت تكلمها وتحديثهم فهي محدثة ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

لقد اصطفاها وطهرها عما يستقذر من النساء، ونزهها عن كل ما يستنكر من بذاءة اللسان وعن كل نقص وعيب من حوادث الأركان من يديها ورجليها، فهداها ربها وأرسل إليها الملائكة تلقنها ما يريد منها وما ينهاها عنه^(٣).

والجدير بالذكر أن مريم ﷺ ليست بنبية، للإجماع على أنه لم تُنبأ امرأة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾^(٤) أما كلام الملائكة معها فلا يستدعي أن تكون نبية، فلقد أوحى الله إلى أم موسى ولم يدع أحد لها النبوة^(٥).

وكلمة أخيرة، إن مريم ﷺ ووالدتها امرأة عمران تمثلان شخصيتين نسويتين تعيان بالممارسة العبادية الواقعية^(٦) وبكلمة هما

(١) الأنبياء حياتهم - قصصهم، ص ٤٧٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٤٢.

(٣) الأنبياء قصصهم - حياتهم.

(٤) سورة يوسف، الآية ١٠٩.

(٥) التفسير الكاشف، ج ٢، ص ٥٦.

(٦) دراسات فنية في قصص القرآن، ص ٩٣.

نموذجان للمرأة الفاضلة المتدينة.

ولعل الحديث عنهما يجرنا لمحاولة فهم علاقة المرأة بربها، وطبيعة شعورها الديني، فبصورة عامة أجمع الناس على بروزه فيها وتملكه من قلبها، فالمرأة في الغالب تتقبل قضايا الإيمان من غير شك أو تردد بل تتعلق فيها بكل جوارحها أما الرجل فإن إيمانه كثيراً ما يفتر إلى ما يمازجه من التفكير والتأمل والتفلسف^(١).

(١) خُلِقَ المرأة، ص ٧٧.

والسلام عليّ يوم ولدتُ

لما بلغت مريم مبلغ النساء، ومشية الله قضت ظهور كلمته وآيته وحجته على خلقه المتمرد الطائش «الشعب الإسرائيلي في ذلك الوقت كان قد فقد الروح الدينية الصحيحة وجمد على الطقوس والمراسيم وأشكال العبادة وارتكب الجرائم المروعة»^(١).

ألهم عبدته مريم العذراء أن تخرج من بيتها ومخدعها إلى الفلاة فما وسعها إلا الانعزال عن الناس واتخاذ الخلوة عنهم وأن تكون وحدها لا عتيادها على ذلك وشدة حياتها وكمال تسترها^(٢) ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا...﴾^(٣) فما راعها إلا وجبريل قد جاءها رسولاً من قبل ربها، في صورة شاب ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾^(٤).

(١) دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ج ٣، ص ٢٩١.

(٢) الأنبياء حياتهم - قصصهم، ص ٤٧٤.

(٣) سورة مريم، الآيتان ١٥-١٦.

(٤) سورة مريم، الآية ١٧.

والإضافة إلى نفسه تعالى: ﴿رُوحَنَا﴾ تشريفية والتعبير بالروح لكمال اتصاله به سبحانه وقربه منه كما أن رسول الله ص كان يقول: فاطمة روعي التي بين جنبي، لشدة محبته لها سلام الله عليها، وهذا التعبير معروف بين الناس^(١).

أخبرها بما جاء به ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾^(٢) فتعجبت قائلة ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾^(٣) والاستفهام للتعجب، أي كيف يكون لي ولد ولم يخالطني قبل هذا الحين رجل لا من طريق الحلال بالنكاح ولا من طريق الحرام بالزنا^(٤).

وقد اعتبر النصارى أن هذا العمل الخارق، ما هو إلا دلالة على أن المسيح ابن الله «المسيح هو الأوحد من كل هذا النسل، لقد ولد بهذه الطريقة العجيبة الفريدة، وهذا ما يجعل المسيحيين يقولون إن المسيح لأنه ابن الله بالمعنى المطلق، فقد اتخذ هذه الطريقة الفائقة من أم عذراء بريئة من كل دنس، أي لم تمسها الخطيئة ولم يمسه الشيطان كما ورد ذلك في الحديث «وليس لأنه ولد بهذه الطريقة فصار ابن الله» فيسوع كان قبل أن يتجسد ولكنه «تجرد من ذاته متخذاً صورة العبد وصار على مثال البشر»^(٥).

(١) الجديد في تفسير القرآن المجيد، ج ٤، ص ٣٨٠.

(٢) سورة مريم، الآية ١٩.

(٣) سورة مريم، الآية ٢٠.

(٤) تفسير الميزان، ج ١٤، ص ٤١.

(٥) المسيح في الفكر الإسلامي الحديث وفي المسيحية، ص ١٩٢.

وكاتب آخر يصور الولادة وفق رأي المسيحيين «جاوب جبرائيل مريم بأن الروح القدس يحل عليها وأن قوة العلي تظللها فتلد ابن الله.. ولم يخفف جواب الملاك شيئاً من غرابة بشارته ولم يقرب التصديق للعقل البشري واكتفى بأن أكد لها أن حبلها يكون بفعل الروح الخالق عز وجل وعلى صورة مستثناة لا مثيل لها قبل أو بعد، وقال لها ثانية إن الذي تلده سيُدعى ابن الله لكن لثلا يؤخذ الاسم العظيم بالمعنى المجازي الذي يسوغ استعماله لمجرد بشر ولأنه يولد من الروح القدس سمّاه القدوس وهو اسم لا يُعطى مطلقاً لبشر أو لملاك»^(١).

إن مشكلة تأليه عيسى النبي ﷺ لم تنبع من الانبهار من أسلوب الولادة فقط، بل لأن هؤلاء لم يعرفوا الحد الفاصل بين الخالق والمخلوق، وما يمكن أن يوصف به الخالق والأمر كله بالنسبة لقدرة الله شيء يسير ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾^(٢).

وهذا ليس تقليلاً من شأن عيسى ﷺ وعظمة مكانته كما قد يتصور البعض، وذلك لأن القرآن لم يقل -حاشاه- عيسى هَيِّن، بل خلقه بدون مقاربة رجل هَيِّن ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾^(٣).

على كل، اقترب منها جبرائيل ﷺ ونفخ في كمّها أو في جيب مدرعتها أي جبتها المشقوقة من الأمام، أو في فمها على اختلاف في

(١) سيرة المسيح، ص ٣١.

(٢) سورة مريم، الآية ٢١.

(٣) سورة مريم، الآيتان ٢٠-٢١.

الأقوال فدخلت النفخة في جوفها فأحسّت في الساعة التي نفخ فيها بالحمل^(١).

أخذت تنأى بنفسها بعيداً ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾^(٢) وذلك بالرغم من إيمانها العميق بهذه البشارة لا تزال تحسب للناس حسابهم، ولا يزال الخجل يلغها لقناعتها بأن الآدميين من الصعب عليهم أن يهضموا مثل هذا الحدث المعجز، ولذلك انفردت في مكان قصي حياءً من الآخرين وخشية من الاتهام^(٣).

﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾^(٤) وحول هذا الإعجاز عُرِضت تساؤلات حول مدة الحمل، ومكان الولادة وتاريخها، أما مدة الحمل فقد ذهب إليان وأشياعه من النصارى إلى أن مريم لم تحبل بعبسى تسعة أشهر وإنما مرّ في بطنها كما يمر الماء في الميزاب، لأن الكلمة دخلت في أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها^(٥).

أما عندنا فهناك أحاديث عديدة بعضها يقول ستّة أشهر وهو الحديث الأقوى، وبعضها يقول تسع ساعات لأنها حملت في بداية النهار وفرغت من حملها في نهايته، وبعضهم يقول ساعتين والله أعلم^(٦).

(١) الجديد في تفسير القرآن المجيد، ج ٤، ص ٣٨١.

(٢) سورة مريم، الآية ٢٢.

(٣) دراسات فنية في قصص القرآن الكريم، ص ٣٤٦.

(٤) سورة مريم، الآية ٢٣.

(٥) دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ج ٣، ص ٢٩٨.

(٦) من هدى القرآن، ج ٧، ص ٣٢.

أما مكان الولادة فلا يشك النصارى أن المسيح ولد في بيت لحم، وقد علق بعض العلماء على أن سكن مريم في القدس وهي خرجت حين أحست بالحمل وعليه فليس ببعيد ما قاله النصارى.

وبالنسبة لتاريخ الولادة فالمؤرخون المحدثون يختلفون في تاريخ مولد السيد المسيح، وإن كان الخلاف محصور في سنوات قلائل، فلقد كان مولد المسيح على أيام قيصرية روما (أوغسطس) (٢٧ ق.م - ١٤ م) وعلى أيام الحارث الرابع (٩ ق.م - ٤٠ م) ملك الأنباط هذا ويذهب البعض إلى أن السيد المسيح إنما ولد فيما بين عامي ٦ - ٢ قبل الميلاد، بينما يذهب فريق ثانٍ إلى أنه ولد عام ٥ قبل الميلاد أو أوائل عام ٤ قبل الميلاد^(١).

شعرت مريم ﷺ بغمرات وشدائد تنتظرها فما تصنع؟ فأخذت تستغيث وتصيح قائلة: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾^(٢).

إن الإنسان الشريف إذا صدر عنه ولو بغير اختياره أمر موجب لاتهامه، وذهاب شرفه فإنه يحب ويتمنى عدمه أولاً، لأنه بهذا الغرض لا يصدر عنه ذلك العمل^(٣).

يأتيها النداء ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾.. إنه المولود يكلم والدته يبشرها، إن الغمرات ستنجلي، وأنتِ على عين الله إكراماً وحفظاً ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (٢٤) وَهَؤُلَاءِ إِلَيْكَ بِجُدْعِ

(١) دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ج ٣، ص ٢٩٩.

(٢) سورة مريم، الآية ٢٣.

(٣) الجديد في تفسير القرآن المجيد، ج ٤، ص ٣٨٣.

النَّخْلَةَ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا^(١).

في الأحاديث إن مريم رفعت رأسها إلى السماء، وقالت إلهي في الأيام العادية التي كنت فيها شابة ولا أعاني فيها مرضاً ولا ألماً كان الطعام ينزل عليّ من السماء دون صعوبة، والآن في هذه الحالة عليّ أن أهرّ جذع النخلة حتى تتساقط عليّ رطبا جنياً لماذا؟ فجاءها أنه في ذلك اليوم كانت علاقتك فقط بي، وما كنت تعرفين إلا الله، أما الآن فقد توزعت علاقتك بين الله وابنك، ولذلك لا بد أن تهزي جذع النخلة^(٢).

كان يختلجها خوف من قومها، فإنهم لن يتورعوا عن اتهامها بأنها... ويأتيها النداء لطيب خاطرها ﴿فَكُلِّي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا^(٣)﴾.

وكما توقعت فقد رماها قومها بالمفتعل ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا^(٤)﴾.

ولأن قومها عرفوا أن العائلة الزكية يجب أن تخرج منها امرأة زكية والعكس صحيح غالباً^(٥) وهذا ما يسمى اليوم بالوراثة التاريخية،

(١) سورة مريم، الآيتان ٢٤-٢٥.

(٢) من هدى القرآن، ج ٧، ص ٣٤.

(٣) سورة مريم، الآية ٢٦.

(٤) سورة مريم، الآية ٢٧.

(٥) من هدى القرآن، ج ٧، ص ٣٦.

فقد قالوا لها: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾^(١).

أشارت للوليد، وأدارت وجهها عنهم، فقالوا: ﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾^(٢).

وهنا يفلج الله حجتها ويثبت براءتها بلسان وليدها، معرّفاً بأنه ولد رشده وليس ولد غيه ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (٣١) وَبِرَّابِوَالدِّينِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾^(٣).

تلك وفق ما جاء به القرآن الكريم، وهنا نذكر ما جاء حول الولادة وفق وجهة النظر المسيحية حتى يتمكن المرء من المقارنة، إن رواية ميلاد يسوع (عيسى ﷺ) المسيح نجدها فقط عند متى في الفصلين الأولين، وعند لوقا في الفصول الثلاث الأولى، بينما سكّتها عنها مرقس، واكتفى يوحنا بالحديث عن ميلاده الإلهي^(٤).

فمتى لما تحدث عن مريم أظهرها حبلى قبل أن تدخل بيت يوسف ثم بدأ يركز على يوسف فيصف لنا نفسيته المضطربة أمام هذا الحدث الفريد، فاضطرب واحتار وأخيراً صمم على التخلي عن مريم

(١) سورة مريم، الآية ٢٨.

(٢) سورة مريم، الآية ٢٩.

(٣) سورة مريم، الآيات ٣٠-٣٣.

(٤) المسيح في الفكر الإسلامي الحديث وفي المسيحية، ص ١٨٢.

سراً دون أن يشهر أمرها (متى ١٩ / ١).

وما كاد يفكر بذلك حتى تراءى له ملاك الرب في الحلم وقال له: يا يوسف بن داود لا تخف أن تجيء بامراتك مريم إلى بيتك، إن الذي تحمله هو من الروح القدس وستلد ابناً فسمه يسوع لأنه هو الذي يخلص شعبه من خطاياهم (متى ١ / ٢٠-٢١) وبذلك هدأ روعه واضطرابه فتحرر من أفكاره المقلقة وتأكد من أن الله تعالى قد اختاره ليقوم بدور الأب الشرعي ليسوع فجاء حينئذ بمريم إلى بيته وأخذها على عاتقه ولما ولد الطفل أعطاه اسم يسوع وسهر عليه (متى ١ / ٢٠-٢١).

أما رواية لوقا، فإنه يعطينا حواراً بين مريم وملاك الرب الذي يكشف هنا عن اسمه: إنه الملاك جبرائيل، فمريم عندما سمعت بشارة الملاك جبرائيل بأنها ستصبح أماً ليسوع قالت له: أنى يكون هذا ولا أعرف رجلاً؟ (لو ١ / ٣٤) فجاء جواب الملاك «إن الروح القدس يحل بك وقدرة العلي تظلللك، ولذلك يكون المولود قدوساً، وابن الله يدعى» (لو ١ / ٣٥).

لقد تفرد لوقا بعبارات لم يذكرها أحد من كتاب الأناجيل سواه «وابن العلي يدعى» وكذا قوله: «المولود منك يدعى ابن الله» وقوله: «ويعطيه الإله كرسي داود أبيه»^(١).

وليس عندنا كلام حول خطبتها ليوسف النجار، فهو لم يرد في آية

ولا رواية، ونفيه وإثباته ليس بالأمر الخطير، ولكن الكلام عن ألوهية عيسى ﷺ المزعومة ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

إن الولد واحد من اثنين، إما أن يكون ولداً بالتبني أو بالولادة، فالولد بالتبني إنما يكشف عن حاجة الأب إلى ذلك الولد، والله سبحانه أسمى من أن يتخذ ولداً بالتبني لأنه قادر لا يحتاج إلى شيء.

أما لو افترضنا أن الولد بالولادة فهناك نظرية فلسفية معقدة تقول إن الكون قد خرج من الله كما تخرج أشعة الشمس من القرص وكما تخرج الأوهام من القلب وكما يصدر الماء الراقد من النبع فسبحان الله، إن هذا القول جاهلي بعيد عن صفة الإلهية والربوبية وتناقض في ذات الوقت.

إن طريقة خلقه سبحانه للأشياء هي مجرد الإرادة والمشئة فقد خلق الله المشية ثم خلق الأشياء بالمشئة يقول كن فيكون، وليس لفظة كن تعني التلفظ بها وإنما هي مجرد الإرادة، وليس خلقه الأشياء عن طريق الممارسة والمعالجة حتى يخرج شيء من شيء فيسمى بالولادة وإنما عن طريق الأمر والإبداع.

إذن فنسبة الأولاد إلى الله خطأ، وإذا صحت هذه الفكرة فلا بد أن تصبح في الكون كله، فنقول بأن السماوات والأرض وما فيهما أولاد الله، لأنها خرجت من الله سبحانه حسب هذا القول الجاهلي، وهذا

قول متناقض في ذاته فكيف يكون المخلوق خالقاً.

حينما يلد شيء من شيء فلا بد أن يكون الوليد من جنس الوالد، ومما لا جدال فيه أن الأب فيه كل الصفات الموجودة في والده، وليس في مجال البشرية فقط، وإنما كل شيء فأشعة الشمس صفاتها نفس صفات الشمس والماء الذي يخرج من النبع صفاته نفس صفات النبع وهكذا فلا بد أن تكون الأشياء المخلوقة في الكون تحمل صفات الخالق (صفة الحياة.. الخلود.. الثبات وعدم التغير) وهذه الصفات غير موجودة في الخلق وإنما هي صفات منحصرة في الخالق فقط، ولو افترضنا وجودها في المخلوق إذاً لما كانت هناك حاجة إلى الخالق^(١).

(١) من هدى القرآن، ج٧، ص٤٣.

وجعلني نبياً

كانت فلسطين قبيل بعثة المسيح ﷺ تحت الحكم الروماني، فبعد تغفل الرومان في الشرق وتغلبهم على السلوقيين في سورية أصبحت فلسطين تحت حكم الرومان ففي سنة ٦٤ ق.م احتل القائد الروماني بومبي سورية وضمها إلى روما.

وفي السنة التالية دخل بومبي أورشليم، وجعلها تابعة لحاكم سورية الروماني، ولم يكن اليهود في هذا العهد أحسن حالاً مما كانوا عليه في العهد الإغريقي، فكانوا بين المد والجزر، أيضاً في ظروف مضطربة ناجمة عن صراع الزعماء الرومان فيما بينهم على الحكم.

ففي عهد قيصر مثلاً (٤٩-٤٣ ق.م) كان اليهود يتمتعون بحرية ممارسة شعائرهم الدينية وبحكم كهني ذاتي ثم بعد اغتيال القيصر سنة ٤٤ ق.م نشب خلاف بين أوكتافيان وانطونيوس فتولى زمام الحكم بصفته أول امبراطور روماني وسمى أغسطس وفي هذه الفترة كان أنطونيوس وأوكتافيان قبل نشوب الخلاف بينهما قد عينا هيرودوس الأدومي ملكاً على يهودا وعلى الجليل سنة ٣٩ ق.م.

واستمر حكمه في فلسطين حتى وفاته ٤ ق. م، وفي عهده أعيد بناء الهيكل في أورشليم، ولكن اليهود كانوا يمتقون له مساوته الوحشية ولاندفاعه في نشر الثقافة اليونانية والرومانية وإنشاء معابد للأصنام في المدن الفلسطينية، وبعد وفاته اضطربت الأحوال على يد موظفين رومانيين سيئ السيرة قساة التصرف^(١).

وكان الوضع الاجتماعي لبني إسرائيل في احتلال مستمر، حيث تفاسد بنو إسرائيل وتدابروا وقطعوا الأرحام، فالتركيبة الاجتماعية قائمة على حال من الخلخلة في البناء الاجتماعي وعلى التناقض الفئوي وعلى الصراع الطبقي أيضاً، وكل الطوائف التي تمثل الشعب اليهودي كان سادتها جميعاً ضده ووشاة عند الرومان ضد الشعب الذي يمثلون سيادته^(٢).

وبينما الشعب اليهودي الفقير البائس الضائع يتعرض للإرهاب والخوف والفرع، ويضيق بأسلوب الحياة المفروضة عليه في ظل السيادة الجديدة كان القادة بجانب الرومان وفي قصورهم، خدماً ووشاة كما تفصح آيات العهد الجديد وتسجل عليهم^(٣).

وتهافت المجتمع باتجاه المادة كما تتهافت الفراشة حول السراج، وامتد هذا الاتجاه إلى العلماء والرهبان فأخذوا يحرضون العامة على تقديم القرايين والنذور للهيكل رجاء أن يحصلوا على

(١) العرب واليهود في التاريخ، ص ٦٧٧.

(٢) بنو إسرائيل في ميزان القرآن الكريم، ص ٢٨٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨١.

الغفران وربطوا الغفران برضى الرهبان ودعائهم، وتعمقوا في المادية وبعثوا عن الروحية فأنكر فريق منهم القيامة والحشر، ومن ثم أنكروا الحساب والعقاب^(١).

وهم الصدوقيون الذين لا يؤمنون بالجنة أو النار أو القيامة أو البعث أو الحساب بل يقولون إن جزاء الأعمال الصالحة أن يبارك الله لصاحبها في الدنيا، وجزاء الأعمال الرديئة أن يعاقبه في الدنيا^(٢).

وهكذا صنع الاتجاه المادي والانحراف العقائدي الشخصية اليهودية شخصية مستعمدة الولاء سوى لمصالحها، وساءت أحوال الفرد الإنسان اليهودي وانعدم فيه إحساسه بأدنى ولاء لعقيدة أو لجماعة أو لسلوك ديني^(٣).

ويمنّ الله على بني إسرائيل بإرسال عيسى ﷺ لإنقاذهم من الضلالة، وقد كانت دعوة المسيح ﷺ تعالج اتجاهين تأصلا عند اليهود هما:

١ - شغفهم بالمادة وإهمالهم الناحية الروحية فيهم.

٢ - ادعاءهم أنهم شعب مختار، وإدعاء أحبارهم أنهم الصلة بين الله والناس، وبدونهم لا تتم الصلة بين الخالق والمخلوق^(٤).

(١) مقارنة الأديان (المسيحية)، ص ٤٩.

(٢) قصة الديانات، ص ٣٧٢.

(٣) راجع بني إسرائيل في ميزان القرآن الكريم، ص ٢٨١.

(٤) مقارنة الأديان (المسيحية) ص ٥٣.

ونشير هنا إلى أن القرآن الكريم لم يذكر متى بدأت نبوة المسيح عليه السلام ولا كيف ذلك، وقد يُحدد ابتداء نبوة المسيح منطوق الآيات ٢٩-٣٣ من سورة مريم ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَيْنِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾^(١).

وظاهر الآيات الكريمة يفيد أن المسيح نبي وهو في المهد^(٢).

ويقول الشيخ محمد جواد مغنية معارضاً هذا الرأي: «هذا جهل أو تدليس لأن عيسى إنما تكلم في المهد تبرئة لأمه من قول الآثمين، لا لأنه رسول من المرسلين، وإذا كان الله قد أسقط التكليف الخفيف على الصبيان فهل يكلفهم بالأحمال ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^(٣) ومن يسمع له ويطيع، وهو في المهد وهل تقوم الحجة لله على عباده بطفل رضيع وأين التعاليم التي بلغها للناس عن الله وهو يلتقم ثدي أمه»^(٤).

أما عبارات الإنجيل فقد اتفقت على أن نبوته كانت رأس ثلاثين من عمره أو على ذلك جرى المؤرخون وكثير من المفسرين^(٥).

(١) سورة مريم، الآيات ٣٠ - ٣٣.

(٢) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج ٣، ص ٣٠٧.

(٣) سورة المزمل، الآية ٥.

(٤) التفسير الكاشف، ج ٣، ص ١٤٤.

(٥) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج ٣، ص ٣٠٧.

وآيته ومعجزته كما حكاها القرآن الكريم ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْبِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(١).

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾^(٢).

أما معجزاته في الأنجيل فيلاحظ عليها ما يلي:

١- تذكر هذه الأنجيل عدداً ضخماً أحياهم المسيح بعد الموت أو شفاهم من البرص أو جعلهم يبصرون بعد العمى، وطبيعة المعجزة غير ذلك أنها دليل لإثبات النبوة، ومعنى ذلك أنها تُستعمل بضع مرات لتحدي البشر حتى يصدقوا.

ولكن الذي تذكره هذه الأنجيل غير هذا إنه أشبه بالتمثيل أي يميت الله فيحيي عيسى من أماته الله دائماً، ويقضي الله بالعمى فيهب

(١) سورة آل عمران، الآية ٤٩.

(٢) سورة المائدة، الآية ١١٠.

عيسى الإبصار لكل العميان، وتحفل الأناجيل بالحديث عن العشرات والمئات من المجانين والمصروعين والعميان والموتى والمشلولين الذين شفاهم السيد المسيح.

٢- من أين هذا العدد الكبير من المرضى والموتى والعميان الذين ذكرت الأناجيل أن معجزات المسيح مستهم؟.. وكأن كل السكان مستهم البرص أو العمى فشفاهم عيسى أو ماتوا فأحياهم^(١).

وينتهج المسيح ﷺ في دعوته الأسلوب الهادئ وذلك بعدم التصادم مع السلطة الزمنية الحاكمة، وذلك حتى يتمكن من إحياء أكبر عدد ممكن من موات القلوب^(٢).

وبالرغم من أن اليهود قبل ميلاد عيسى ﷺ يؤمنون بالمسيح المنتظر لكن لما جاءهم بالبينات والمعجزات اختلفوا فيه فآمن به البعض وكفر به أكثر أهل الجاه والمال خوفاً على مناصبهم ومكاسبهم.

ولما خابت آمال اليهود، الذين كانوا يعتقدون بأن السيد المسيح سوف يبسط سلطانهم على العالم أجمع باعتبارهم شعب الله المختار، بل شعر الأحرار أن مراكزهم في خطر حينما أراد المسيح ﷺ أن يوضح للناس أن هؤلاء ليسوا حلقة الوصل بينهم وبين ربهم، فأغروا به الحاكم الروماني.

ولكن الرومانيين كانوا وثنيين ولم يكونوا على استعداد للدخول في الخلافات الدينية بين اليهود.. ولكن اليهود تتبعوا عيسى لعلمهم

(١) مقارنة الأديان (المسيحية) ص ٥١.

(٢) المصدر السابق.

يجدون منه سقطة تثير عليه غضب الرومان فلما لم يجدوا تقوّلوا عليه وكذبوا فأغضبوا الحاكم الروماني^(١).

أحسّ عيسى ﷺ أن رسالته مهددة بخطر الفناء وإنما يهدف اليهود قتله قبل إتمام رسالته فعمد للإسراع في تكوين نواة مجتمع الرسالة، فاختبر أصحابه ومن آمن به وطلب منهم البيعة على السراء والضراء، وفعلاً نجح في تشكيل القاعدة فأحكم بناءها إلا أنها كانت صغيرة ولم يرفدها المجتمع بعناصر أخرى عما كانت تطمح الرسالة^(٢).

وهكذا اعتزل عيسى ﷺ وحواريه الأكثرية الضالة ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾^(٣). ولهؤلاء الحواريين أهمية خاصة، فهم يمثلون الموقف الصحيح من عيسى ﷺ فهم الرعيل الأول من المؤمنين، الذين لم يتخذوه إلهاً كما فعل التحريفيون بعد هؤلاء، ولو كان عيسى ﷺ إلهاً لحقّ لأولئك قبل غيرهم أن يكشفوه لأنهم عاصروه ورأوه مباشرة^(٤).

ويشير القرآن إلى أن الحواريين طلبوا من عيسى ﷺ مائدة من السماء ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْنَا مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٥) وتومئ هذه الآية

(١) المصدر السابق، ص ٥٣.

(٢) حركة المجتمع في التاريخ، ص ٢٩٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٥٢.

(٤) من هدى القرآن، ج ١، ص ٥١٨.

(٥) سورة المائدة، الآية ١١٢.

إلى أن الحواريين ما كانوا مؤمنين بـعيسى عليه السلام عندما طلبوا منه هذه المائدة لأنهم في غنى عنها مع التصديق والتسليم، والذي يؤكد ذلك قولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ فإنه يشعر بالتشكيك في قدرة الله مع أن الآية السابقة قد شهدت لهم بالإيمان ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١) كما أن لفظ الحواريين يدل بنفسه على إيمانهم بعيسى وإخلاصهم له فما وجه الجمع بين الآيتين؟

أجاب كثير من المفسرين بأن سؤالهم هذا لا يتنافى مع إيمانهم لأن القصد منه الإيمان عن طريق الحس والعيان بعد الإيمان عن طريق العقل والبرهان وبكلمة القصد تقوية الإيمان وتثبيتته^(٢).

فهناك فرق بين الحكم والاعتقادية، فالأول هو فعل العقل الذي يدرك به وقوع النسبة أو عدم وقوعها، على حين أن الاعتقاد هو الحالة النفسية التي تعقب الحكم وتقلبه بال تكرار.

وإن الاعتقاد لا بد أن يكون حالة الوسط، فلا يكون الاعتقاد قبل التأمل، كما عند ضعفاء العقول الذين يصدقون كل مستحيل ويثبتون أو ينفون كل شيء بحسب الدوافع المؤقتة، ولا يكون الاعتقاد بالتشكيك الدائم المستمر بحجة الوصول إلى اليقين، بل المطلوب يقين قائم على الروح الانتقادية ولكن دون الشك الذي لا ينتهي^(٣).

(١) سورة المائدة، الآية ١١١.

(٢) التفسير الكاشف، ج ٣، ص ١٤٧.

(٣) علم النفس، جميل صليبا.

وما صلبوه ولكن شبه لهم

حكم الرومان على المسيح ﷺ بالإعدام، فأخذوا في البحث عنه، واتخذوا كل السبل وركبوا كل صعب وذلول للكشف عن مكانه، حتى استطاعوا تحديد وجوده بسبب وشاية أحد الحواريين كما في الرواية المسيحية، التي أشارت إلى أن عيسى ﷺ قد لجأ إلى ضيعة جشيماني ليحتمي بها ولكن الخائن يهوذا الأسخريوطي، أحد الحواريين كان قد اتفق مع زعماء اليهود على أن يدلهم على مكانه نظير ثلاثين قطعة من الفضة، وتسلم الخائن هذا المبلغ، وقاد جند الرومان إلى حيث وجد المسيح ﷺ فقد ذكر الخائن لهم علامة هي قوله: الذي ساقبله هو هو أمسكوه، وتم كل شيء على هذا^(١).

واتفق اليهود والنصارى على دعوى صلبه، خلا أن اليهود قالوا عنه ما يهتز له العرش، أما النصارى فقالوا هو إله وإنسان في وقت واحد. وزاد النصارى في حديثهم عن صلب المسيح ﷺ بقولهم أنه خرج من قبره بعد ثلاثة أيام وصعد إلى السماء، وهنا يذكر كاتب مسيحي هذه

(١) مقارنة الأديان (المسيحية) ص ٥٤.

الملاحظة قائلاً: «كل من يوحنا ومثي لم يذكر صعود عيسى في الوقت الذي ذكره فيه مرقس ولوقا، ففي مرقس (١٦، ١٩) قد صعد عيسى إلى السماء وجلس عن يمين الله» ولكن ينبغي الانتباه إلى أن نهاية إنجيل مرقس المتضمنة لهذه العبارة غير أصيلة لأنها نص مستعار كما يقول الأب روجيه على الرغم من أن الكنيسة قد اعتبرت قانونية، وبهذا يكون لوقا هو الوحيد الذي أورد في نص لا جدال فيه حادث الصعود (٢٤، ٥١) «وانفصل عيسى عنهم وصعد إلى السماء»^(١).

وفي عقيدة المسيحيين أن صلب المسيح هو للتكفير عن خطيئة البشر ويصور هذا كاتب مسيحي فيقول: «في المسيحية ينسب الكمال كله لله أما الإنسان فهو غير كامل وهو مستحق للوم على ما يرتكبه مما يبعده عن الكمال، والصلة بين الله والناس تتعرض للوهن أو الانفصال بسبب سيئات الإنسان ولا بد للإنسان لكي يعيد رفقته لله أن يفقده نفسه ولا يملك الإنسان ما يفقده به نفسه، وليس إلا عيسى ابن الله ليقدم شفيعاً بين الله والإنسان فهو الابن الذي يعرف الله كأب، ويعلن عنه لهم أنه أب محب للرحمة يعفو عن سيئاتهم ويرحب بهم داعياً لهم أن يعودوا إليه وإن كانوا قد أذنبوا»^(٢).

وكانت أول الخطيئة عصيان آدم الله بألا يأكل من فاكهة المعرفة المحرمة^(٣) وبهذا العمل الحر جعل آدم ذريته كلها في حالة الانفصال

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص ٩٨.

(٢) مقارنة لأديان (المسيحية)، ص ١٦٠.

(٣) الإسلام والمسيحية، ص ٨٢.

عن الله تعالى، وراحت هذه الخطيئة الأصلية تنتقل وراثياً إلى ذريته أو بتعبير آخر، إن كل مولود جديد يأتي في حالة أهله ووجوده في حالتهم هذه يتم قبل اتخاذ أي قرار شخصي^(١).

وعبر التاريخ المقدس ظهرت جسامه وبشاعة الخطيئة وبإلهام استطاع مدوّن الكتاب المقدس أن يرى في آدم أول خاطئٍ إذ رأى تناقضاً بين عداله الله ووجود المصائب والويلات في حياة الإنسان^(٢).

ويواصل الكاتب زخرف قوله: «الله هو الذي أهين مباشرة، ومن أهان الله فقد قرر الموت أو الفناء أو صفح الله، ولما كان الإنسان يفتقر إلى القدرة على التكفير عن خطيئته لأنه هو المهين فلم يبق غير المهان أي الله القادر على كل شيء ليعيد هذه المصالحة والاتحاد من جديد، ولهذا السبب فقد أخذ هو ذاته المبادرة لتخليص الإنسان من هذه الحالة»^(٣).

وبتعبير آخر، عن يسوع المسيح قد أعاد الصحبة الحميمة بين الله والإنسان كما كانت في الفردوس قبل سقوط آدم، وذلك ببذل حياته كلها على الصليب بملاء حرته فداءً عنا^(٤).

فأدم الأول دخل العالم الموت وكثرت الخطايا بحيث أن الجميع قد أخطئوا، أما يسوع الفادي الأوحى فقد عادت الحياة نهائياً لأنه دخل

(١) المسيح في الفكر الإسلامي الحديث وفي المسيحية، ص ٣٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٤١.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٤٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٣٩.

القدس مرة واحدة بدمه الكريم فكسب للبشر بذلك فداء أبدياً، فآدم الأول هدم ما صنعه الرب ورمى ذريته في حالة الخطيئة أي الانفصال عن الله تعالى، بينما يسوع المسيح آدم الجديد فقد أسس الحياة الجديدة ونال للعالم الخلاص الأبدي وذلك بسكب دمه على الصليب^(١).

وهكذا اتخذ ما سُمي بصلب المسيح رمزاً للتضحية من أجل رفع الخطيئة حتى أصبح حمل الصليب وتقديسه عنواناً يذكر المسيحيين بالتضحية الضخمة التي قام بها المسيح من أجل البشر، فمعنى الصليب هو الاستهانة بالحياة والاستعداد للموت بأشعث صورة، أي صلباً على خشبة كما يفعل بالمجرمين والأثمين^(٢).

وبعد ذكر النصوص السابقة يمكن أن نتوصل إلى هذه النتيجة وهي أن التمسك بفكرة صلب المسيح ﷺ إنما نابعة من عقيدة الخلاص من الخطيئة، التي تحمل معها تساؤلات محيرة وثرغرات خطيرة، فأَيُّ مفكر لتخطر بنفسه الأسئلة الآتية:

١- ادعى المسيحيون أن صلب المسيح كان لتحقيق العدل والرحمة، وأي عدل وأي رحمة في تعذيب غير مذنب وصلبه، قد يقولون إنه هو الذي قبل ذلك، ونقول لهم إن من يقطع يده أو يعذب بدنه أو يتتحر مذنب ولو كان يريد ذلك.

٢- إذا كان المسيح ابن الله فأين كانت عاطفة الأبوة، وأين

(١) المصدر السابق، ص ٣٤٢.

(٢) مقارنة الأديان (المسيحية) ص ١٧٤.

كانت الرحمة حينما كان الابن الوحيد يلاقي دون ذنب ألوان التعذيب والسخرية ثم الصلب مع دق المسامير في يديه.

٣- من هذا الذي قيّد الله جلا جلاله، وهل عليه أن يلزم العدل أو أن يلزم الرحمة وأن يبحث عن طريق للتوفيق بينهما.

٤- يدعي المسيحيون أن ذرية آدم لزهم العقاب بسبب خطيئة أبيهم، وفي أي شرع يلتزم الأحفاد بأخطاء الأجداد وبخاصة أن الكتاب المقدس ينص على أنه لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيئته يقتل.

٥- هذا إلى أن خطيئة آدم التي لم تزد عن أن تكون أكلًا من شجرة نهى عنها قد عاقبه الله عليها بإخراجه من الجنة ولا شك أنه عقاب كافٍ، فالحرمان من الجنة الفينانة، والخروج إلى الكدح والنصب عقاب ليس بالهين، وهنا العقاب قد اختاره الله بنفسه وكان يستطيع أن يفعل بآدم أكثر من ذلك ولكنه اكتفى بذلك فكيف يستساغ أن يظل مضمراً السوء غاضباً آلاف السنين حتى وقت صلب عيسى^(١).

ومما يساهم كذلك في رفض التكفير بالصلب بل وحادثة الصلب عدة أمور:

١- كشف إنجيل برنابا أنها أسطورة، حيث جاء فيه على لسان المسيح «فلما كان الناس دعوني الله وابن الله على أنني كنت بريئاً في العالم، أراد الله أن يهزأ الناس بي في هذا العالم بموت يهوذا معتقدين

أنني أنا الذي مت على الصليب لكيلا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة، وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشرعة الله»^(١).

٢- أغلب الشعوب الشرقية قبل الإسلام رفضت مسألة الصلب والقتل بحق المسيح، حتى أن الباسيليوس الباسيليدي يقول: «إن نفس حادثة القيامة، قيام المسيح بعد الصلب والقتل هي من ضمن البراهين الدالة على عدم حصول الصلب على ذات المسيح، ومعلوم أن نصارى سوريا هم الذين وقعت هذه الحادثة بينهم فهم أقرب الناس إلى العلم بحقيقتها»^(٢).

٣- مما يوهن رواية الصلب ويستأصله هي التناقضات الثمان في النقل الإنجيلي في رواية الصلب مما يبين دون ريب أن الرواة لم يكونوا يشهدونه وإنما تناقلوه فقد اختلفت الأناجيل في حامل الصلب والافتراع على ثياب المصلوب، وما كتب فوق رأسه، ورفيق المصلوب والمستهزئين به ودعائه وصرخته وآخر كلامه^(٣).

بل إن مجرد اختلافهم في كيفية قتله لدليل على أنهم لم يقتلوه يقيناً وإلا فعملية القتل خصوصاً لشخصية كبيرة كعيسى لا يمكن أن تبعث الشك والتردد بل تكون موضع يقين واتفاق الجميع^(٤).

(١) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج ٣، ص ٣٤١.

(٢) الفرقان في تفسير القرآن، مجلد ٥-٦، ص ٤٢٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٢٩.

(٤) من هدى القرآن، ج ١، ص ٥٧١.

٤- إن تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة نفسه ذبيحة فداء عن الخطيئة قديم العهد جداً عند الهنود الوثنيين وغيرهم. منها يعتقد الهنود أن كرشنا المولود البكر الذي هو نفسه الإله فشنوا الذي لا ابتداء له ولا انتهاء تحرك كي يخلص الأرض من ثقل حملها فأتاها وخلص الإنسان بتقديم ذبيحة عنه^(١).

فحقيقة الصلب للتكفير وثنية، وقيل أيضاً في بلاد النيبال والتبت يعتقدون أن إلههم أندرا بسفك دمه بالصلب وثقب المسامير لكي يخلص البشرية من ذنوبهم، وأن صور الصلب موجودة في كتبهم^(٢).

٥- ليس من الصحيح تاريخياً أن نقول بأن يسوع أتى ليموت باختيار وبتعمد لأجل خطايا الإنسان، نحن نقرأ في الكتاب المقدس أنه لم يرغب في أن يموت على الصليب لهذا عندما اكتشف بأن أعداءه كانوا يأمرون ضد حياته صرح بأن نفسه كانت حزينة إلى أقصى حد، طلب حواريه أن يبقوا متبهين ليحموه من أعدائه^(٣).

٦- إننا نعجز عن تصور كيف أن الألم والموت لإنسان يمكن أن يمحو خطايا الآخرين. إنها تبدو كالطبيب يشج رأسه ليشفي ألم موضاه^(٤).

٧- إننا لا نرى أي ربط إطلاقاً بين الدم والخطيئة، ما هو الضروري

(١) قصص الأنبياء (النجار)، ص ٤٣٢.

(٢) مقارنة الأديان، (المسيحية)، ص ١٦٨.

(٣) الإسلام والمسيحية، ص ٩٤.

(٤) المصدر السابق.

لمحو الخطيئة ليس الدم ولكن التوبة، الندم، الجهاد المتواصل ضد الميول الشيطانية، التطوير لمحبة أكبر للإنسانية والعزم لتنفيذ وصية الله كما وصلت إلينا من خلال الأنبياء^(١).

٨- عقيدة الكفارة غير صحيحة بذاتها وذلك لأن الإنسان ليس مولوداً في الخطيئة، ولأن الله لا يطلب ثمناً ليغفر للمذنبين، ولأن فكرة التعويض، والتضحية المقدسة وحشية وغير عادلة^(٢).

إن أخطر ما في عقيدة الصلب لأجل الكفارة أن تجعل الإنسان متحرراً من الالتزام بقيود دينية، وذلك لأنه قد خلصه الرب بصلب ابنه !!!

«إن قصة الصلب بحق سيدنا المسيح ﷺ التي يشدد القرآن النكير عليها ليست كقصة من سائر القصص التي يُمرّ عليها مرّ الكرام، بل هي بمتعلقاتها وأصولها الأساطيرية الغابرة حول تاريخ الوثنية قصة إباحية بربرية تفك كافة القيود المقررة في شرائع الله»^(٣).

أما بالنسبة للمسلمين فقد اختلفوا فيما بينهم، فقال أكثرهم: إن المسيح لم يمت وإنه حي في السماء أو في مكان ما بجسمه وروحه وإنه يخرج في آخر الزمان إلى الأرض ثم يتوفاه الله بعد ذلك الوفاة الحقيقية، وقال كثير من المسلمين: إنه مات حقيقة وإن الذي ارتفع إلى السماء روحه لا جسمه.

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٨.

(٣) الفرقان في تفسير القرآن، مجلد ٥-٦، ص ٤٣٣.

وسبب هذا الاختلاف بين المسلمين هو اختلاف ظاهر النص فالآيتان ١٥٧-١٥٨: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ هما ظاهرتان في أنه حي بالإضافة إلى أحاديث نبوية في معناها، ولكن الآية ١١٧ من سورة المائدة تقول: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ وقريب منها الآية ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾^(١).

فإن المتبادر من الوفاة هو الموت وإن المعنى الظاهر أنني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع كما قال في إدريس ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾^(٢) وكما قال في الشهداء ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾^(٣).

والذين قالوا إن عيسى حي بجسمه وروحه أولوا توفيتني ومتوفيك بوجوه أرجحها أن القصد هو التشبيه بالوفاة الحقيقية لأنه إذا رفع إلى السماء فقد انقطعت علاقته بالأرض وصار كالميت.

وأما الذين قالوا إنه مات حقيقة فقد أولوا ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ بأن اليهود لم يقتلوا مبادئ عيسى وتعاليمه بقتله وصلبه.. ولكن خيل إليهم أنهم قد قضوا على تعاليمه بذلك مع أنها ما زالت قائمة^(٤).

(١) سورة آل عمران، الآية ٥٥.

(٢) سورة مريم، الآية ٥٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

(٤) التفسير الكاشف، ج ٢، ص ٧١.

وبعضهم ترك معرفة الأمر لله، المهم الفكرة كل الفكرة هي أن الله قد دبر بحكته وبخطته الخفية خلاص عيسى من اضطهاد اليهود ومن محاولتهم قتله أما ماذا فعل.. وما هي الخطّة، فذلك ما اختص الله بعلمه، فلنرجع الأمر فيه لله فيما يريد أن يعرفنا إياه، وفيما لا يريد أن يعرفنا سرّه^(١).

(١) من وحي القرآن، ج٧، ص ٥٣٥.

عيسى ﷺ الإنسان

وذكر القرآن الكريم المسيح عيسى ﷺ بعض أحواله، كلها تهدف إلى رفض أية صفة غير إنسانية، فهو يأكل الطعام ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾^(١)، وفيه إمكانية الموت والهلاك ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^(٢).

وطبيعة خلق الله له الإعجازية، لا تعطي لأحد الحق في تصويره ابن الله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣).

وكيف ذاك وأحوال المسيح، سلوكه وإيمانه دليل على عبوديته لله. في محاوراة طويلة بين الرضا ﷺ مع الجاثليق يقول الرضا ﷺ:

(١) سورة المائدة، الآية ٧٥.

(٢) سورة المائدة، الآية ١٧.

(٣) سورة المائدة، الآية ٥٩.

يا نصراني، والله إنا لنؤمن بعيسى الذي آمن بمحمد ﷺ وما ننقم على عيسى شيئاً إلا ضعفه وقلة صيامه وصلاته.

قال الجاثليق: أفسدت والله علمك وضعفت أمرك وما كنت ظننت إنك أعلم أهل الإسلام.

قال الرضا عليه السلام: وكيف ذلك.

قال الجاثليق: من قولك إن عيسى كان ضعيفاً قليل الصيام والصلاة وما أفطر عيسى يوماً قط وما نام بليل قط وما زال صائم الدهر قائم الليل.

قال الرضا عليه السلام: فلمن كان يصوم ويصلي؟ فخرس الجاثليق وانقطع^(١).

فالمسيح إنسان وبكلمة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٢). ويتصل نسبه من خلال والدته بهارون شقيق موسى الكليم، وبه يصل لإبراهيم عليه السلام ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣).

أما المسيحيون فقد نسبوا عيسى عليه السلام ليوسف النجار (بالتبني)

(١) الاحتجاج، ج ٢، ص ١٨٥.

(٢) سورة المائدة، الآية ٥٩.

(٣) سورة الأنعام، الآيتان ٨٤-٨٥.

بخلاف القرآن الذي أعطاه نسبه الطبيعي المتوافق مع خلقه، وفي الواقع نجد الإنجيليين يظهر أنه سالكا سلوك إنسان، وعديدة هي الآيات في الأنجيل التي تدل على حقيقته البشرية، لقد ولد يسوع من امرأة هي مريم، إنه من ذرية داود.. ثم نما يسوع مثل كل مخلوق بشري، وكان يسوع يتسامى في الحكمة والقامة والحظوة عند الله والناس^(١).

وحينما ولد يسوع وضع في مزود (لو ٢/٧-١٢) وعاش في حالة بشرية فقد شعر بالجوع (متى ٤/٢، ٢١/١٨) والعطش (يو ١٩/٢٨) فأكل وشرب، حتى أنه بكى أيضاً صديقه لعازر (يو ١١/٣٥) وتظهره آلامه معذباً حائر العزم إلى أن نازع ومات على الصليب، فسلوك يسوع إذن يبرهن كلياً أنه كان فعلاً وحقاً إنساناً كاملاً.

أما كيف وفق المسيحيون بين لقبين للمسيح (ابن الله وابن البشر) فيجيب منير خوام: «في الواقع يعلن المسيحيون أن عبارة ابن البشر لها شمل أعمق بكثير مما نفترضه للوهلة الأولى. صحيح أن يسوع هو إنسان ولكننا نجد آيات عديدة تحوي هذه العبارة وتشير إلى أن يسوع هو أكثر من إنسان عادي، وهذا الاسم يرتبط بمفاهيم تدل على مصير مجيد فائق سام»^(٢).

ونذكر هنا أن من الثغرات الكبيرة في عقيدة تأليه المسيح، هي أنها لم تظهر إلا بعد اختفائه، فلا تعامل الحواريون معه على أساس أنه ابن الله ولا أمه ولا أحد، وكل ما في الأمر تمسك المسيحيون ببعض

(١) المسيح في الفكر الإسلامي والحديث وفي المسيحية، ص ٢٤٩.

(٢) المسيح في الفكر الإسلامي والحديث وفي المسيحية، ص ٢٤٨.

العبارات التي نقلوها على لسان المسيح مدّعين أنها دليل ألوهيته.

لقد غالى النصارى في عيسى عليه السلام وجعلوه الإله ابن الإله، ولكن مع ذلك فقد رسموا له كإنسان صورة باهتة، أحد المراجع المسيحية يتحدث أن العذراء عاشت كعائلة ليس لديها من الأولاد غير يسوع وهو طفل هادئ ينمو في النعمة، وفي القامة ككل طفل وهي كحياة أية عائلة تسكن منزلاً من المنازل العادية في تلك القرية.

وكانت العذراء كسائر النساء اللواتي في مكانتها، تغزل وتطهو الطعام وتشتري الفاكهة وتذهب كل مساء إلى النبع المسمى الآن باسمها بئر مريم، وكان يسوع يعمل ويساعد ويذهب إلى المجمع في السبت وفي أعياد الفصح كانوا يزورون أورشليم^(١).

ولا يذكر أصحاب الأناجيل إلا القليل الذي لا يغني عن شباب المسيح فهم يقولون إنه اختتن حين بلغ الثامنة من عمره، ولقد كان يوسف نجاراً وأن ما كان في ذلك العصر من توارث المهن ليوحى بأن يسوع قد احترف هذه الحرفة اللطيفة وقتاً ما، وكان ذا عقل يقظ، والشاب متى بلغ الثانية عشرة من عمره في بلاد الشرق، أو شك أن يبلغ سن النضوج لكنه لم يتعلم تعليماً منظماً، وشاهد ذلك أن جيرانه كانوا يتساءلون كيف يستطيع هذا الرجل أن يقرأ وهو لم يذهب قط إلى المدرسة.

وكان يتردد على المجمع الديني ويستمع إلى تلاوة الكتاب

(١) الصديقة مريم العذراء معجزة الأجيال، ص ١٠٩.

المقدس ويبدو عليه السرور حين يسمعه، وقد انطبعت في ذاكرته الأقوال الواردة في أسفار الأنبياء والمزامير بنوع خاص وكان لها أثر كبير في تشكيله^(١).

وتمحيص أقسى ما كان يؤمن به معاصروه عن جهنم السرمدية التي يعذب فيها من لا يتوبون من الكفار والمذنبين بالنار التي لا تنطفئ أبداً والديدان التي لا تشبع من نهش أجسامهم، وينصحنابنبل وشرف ألا نحكم حتى لا يحكم علينا، ولكنه يلعن الناس والمدن التي لم تؤمن برسالته ويلعن شجرة التين التي لم تكن تحمل ثمراً ولعله كان قاسياً بعض القسوة على أمه، كان يتصف بحماسة النبي العبراني المتزمت أكثر من اتصافه بالهدوء الشامل الذي يمتاز به الحكيم اليوناني^(٢).

(١) قصة الحضارة، ج ١١، ص ٢١٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٩.

وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ

جاء المسيح ببشارة ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(١) وهذه البشارة ذكرت بوضوح في إنجيل يوحنا، حيث يعلن المسيح لتلاميذه «وأنا أسأل أبي فيهب لكم مؤيداً آخر يبقى معكم إلى الأبد» (يو ١٤/١٦) ويقول أيضاً «ولكن المؤيد الروح القدس يرسله الأب باسمي فيعلمكم جميع الأشياء ويذكركم جميع ما قلته لكم» (يو ١٦/٢٦).

إلا أن الكنسيون قد حرفوا النص وبدلوا الكلمة اليونانية -بيريكليتوس- وتعني في العربية أحمد بكلمة براكليتوس، وتعني الروح القدس، وهكذا تغير النص وحورت نبوءة عيسى ﷺ.

ومما يدلنا تاريخياً أن المبشر به هنا نبي بعد السيد المسيح لا الروح القدس المسلي، إدعاء جماعة من المسيحيين أنهم بيركلتوس،

الموعود المنتظر، يقول وليم ميور في كتابه لب التاريخ ط ١٨٤٨ «إن منتس المسيحي الذي كان رجلاً تقياً شديد الرياضة ادعى في آسيا الصغرى أنني فارقليط موعود المسيح، الذي تنتظرونه، فأمن به طائفة منهم، ويقول أيضاً إن اليهود والنصارى زمن محمد كانوا بانتظار النبي الموعود فارقليطاً، فاتخذ محمد ظرفاً صالحاً للدعاء أنني فارقليطاً موعود المسيح»^(١).

وفي حوار مع الدكتور كارلونليو الحاصل على شهادة الدكتوراه في آداب اليهود اليونانية القديمة، يقول عبدالوهاب النجار سألتته عن معنى بيريكلتوس، فأجابني أن القسس يقولون أن هذه الكلمة معناها المعزي، فقلت إنني أسأل الدكتور الحاصل على الدكتوراه ولست أسأل قسيساً، فقال: إن معناها الذي له حمد كثير، فقلت: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد.

قال: نعم، فقلت: إن رسول الله من أسمائه أحمد، فقال: يا أخي أنت تحفظ كثير^(٢).

ولقد عبر أيضاً عن أحمد في نص يوناني آخر بـ(أيودكيا) كما في لوقا ١٤: ٣ «فظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماويين يسبحون الله ويقولون الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض إسلام وللناس أحمد رغم أن التراجم تقول: وعلى الأرض السلام للناس الذين بهم المسرة، وكما هو دأبهم في تحريف الترجمان عن البشارات

(١) الفرقان في تفسير القرآن، ج ٢٨، ص ٣٠٨.

(٢) قصص الأنبياء، ص ٣٩٨.

المحمدية، فهم يترجمون (ايريني) بـ(سلام) و (ايودكيا) بمسرة رغم
أنهما إسلام وأحمد، حسب الأصل اليوناني واقعياً ولغوياً»^(١)

١٦/١/١٤١٤هـ

(١) الفرقان في تفسير القرآن، ج ٢٨، ص ٣١٠.

المصادر

- ١ - الجوهر الثمين في تفسير الكتابة المبين، السيد عبدالله شبر.
- ٢ - النبوة والأنبياء الصابوني.
- ٣ - قصص الأنبياء ابن كثير.
- ٤ - دراسات تاريخية من القرآن الكريم محمد مهران.
- ٥ - تاريخ العرب د فليب حتى.
- ٦ - علم النفس جميل صليبا.
- ٧ - التوبة والتائبون مهدي الفتلاوي.
- ٨ - التفسير المنير د / وهبة الترحيلي.
- ٩ - قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار.
- ١٠ - التمهيد في علوم القرآن محمد هادي معرفة.
- ١١ - الفقه كتاب الصلاة الشيرازي.
- ١٢ - موسوعة البرغاني الشيخ محمد صالح الحائري.
- ١٣ - قصة الديانات سليمان مظهر.
- ١٤ - إبليس في القرآن، محمد باقر حجتى.
- ١٥ - بحار الأنوار العلامة المجلسي.

- ١٦- الحوار في القرآن السيد محمد فضل الله.
- ١٧- شبهات وردود.
- ١٨- العرب واليهود في التاريخن أحمد سوسة.
- ١٩- مرآة العقول، العلامة المجلسي.
- ٢٠- الأنبياء حياتهم - قصصهم، عبدالصاحب العاملي.
- ٢١- من وحي القرآن، السيد محمد فضل الله.
- ٢٢- علل الشرائع، الشيخ الصدوق.
- ٢٣- تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي.
- ٢٤- من هدى القرآن، السيد محمد تقي المدرسي.
- ٢٥- تفسير الصافي، الفيض الكاشاني.
- ٢٦- الثقافة الرسالية.
- ٢٧- مجمع البيان، الطبرسي.
- ٢٨- سيكولوجية المرأة.
- ٢٩- تفسير الكاشف، الشيخ محمد جواد مغنية.
- ٣٠- دراسات فنية في قصص القرآن، محمود البستاني.
- ٣١- خُلق المرأة.
- ٣٢- أصول علم النفس، د. أحمد عزت راجح.
- ٣٣- أشهر الأحلام في التاريخ، ممدوح الشيخ.
- ٣٤- التحليلي النفسي للأحلام، عبد المنعم الحفني.
- ٣٥- الإسلام وعلم النفس، محمود البستاني.
- ٣٦- وسائل الشيعة، الحر العاملي.
- ٣٧- عالم غير منظور خارج القواعد العلمية.

- ٣٨- علم النفس الإسلامي، معروف زريق.
- ٣٩- مجلة الشهيد.
- ٤٠- التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، مٌريس بوكاي.
- ٤١- الجديد في تفسير القرآن المجيد، السبزواري.
- ٤٢- الفرقان في تفسير القرآن، صادق طهراني.
- ٤٣- الصديقة مريم العذراء، معجزة الأجيال، جعفر الأُمرد.
- ٤٤- حركة المجتمع في التاريخ.
- ٤٥- يوسف في القرآن الكريم والتوراة، د. زاهية الدّجاني.
- ٤٦- لطائف قرآنية، د. صلاح الخالدي.
- ٤٧- سفينة البحار، الشيخ عباس القمي.
- ٤٨- نهج البلاغة.
- ٤٩- قصص الأنبياء، الراوندي.
- ٥٠- معجم البلدان، ياقوت الحموي.
- ٥١- دراسات فنية في التعبير القرآني.
- ٥٢- النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ.
- ٥٣- القصص القرآني، تفسير اجتماعي.
- ٥٤- بنو إسرائيل في ميزان القرآن الكريم، صابر طعيمة.
- ٥٥- قصة الضحارة، ويل ديورانت.
- ٥٦- تنزيه الأنبياء، الشريف الرضي.
- ٥٧- تفسير نور الثقلين، الحويزي.
- ٥٨- الكافي، الكليني.
- ٥٩- الخضر بين الواقع والتهويل، محمد خير رمضان يوسف.

المحتويات

٧.....	كلمة لا بد منها
٩.....	تقديم سماحة الشيخ حسن موسى الصفار
١٥.....	آدم عليه السلام : في الجنة... على الأرض
١٧.....	تمهيد
١٩.....	آدم عليه السلام ليس أول من سكن الأرض
٢٣.....	طينة حواء
٢٣.....	ونفخت فيه من روحي
٢٥.....	ملاحظات
٢٥.....	١- نظرية القرد المتمدن
٢٦.....	٢- نسل وبدون نسل
٢٧.....	٣- لماذا خلق آدم من تراب؟
٢٩.....	إبليس يعلن الحرب على آدم عليه السلام
٣١.....	سجود تحية لا عبادة
٣٤.....	شبهة قياس أم قياس للتمرد
٣٩.....	آدم عليه السلام - إبليس - الشجرة
٤٧.....	آدم عليه السلام في مكة

- آدم عليه السلام (الزوج - الأب) ٥٥
- جريمة تهز قلب آدم ٥٨
- آدم عليه السلام في جوار الله ٦٥
- يونس عليه السلام: ذو النون ٦٧
- تمهيد ٦٩
- الملاح العامة... النبي - القرية ٧١
- النبي يونس عليه السلام: ٧١
- القرية: ٧٢
- يونس عليه السلام يحاور القرية ٧٥
- إجماع على التوبة ٨١
- يونس عليه السلام ودوافع الهجرة ٩١
- يونس عليه السلام في بطن الحوت ٩٥
- يوسف عليه السلام: الصديق وأحداث الأيام ٩٩
- تمهيد ١٠١
- الذئب - القميص - الدم ١٠٣
- معاذ الله أنا من أهل بيت لا يزنون ١١١
- يوسف عليه السلام في مقبرة الأحياء ١٢١
- يوسف عليه السلام ووصولجان الملك ١٢٩
- الأحلام الظاهرة... الموقف ١٣٥
- دور الأحلام ١٣٦
- طبيعة الأحلام ١٣٧
- الأحلام التنبؤية ١٣٩
- الموقف السليم ١٤١

١٤٥	موسى الكليم ﷺ: محرر بني إسرائيل
١٤٧	تمهيد
١٤٩	وأشرق فجر خلاص بني إسرائيل
١٥٧	موسى بين (وَلْتَضَعْ عَلَىٰ غَيْبِي) و (أَلَمْ تُرَبِّكْ فِينَا وَلِيدًا)
١٦٥	موسى ﷺ في (مدين - الوادي المقدس)
١٧٧	عصا موسى ﷺ تنقذ عبيد العصا وتقرع شديد العصا
١٩٥	خروج بني إسرائيل
١٩٩	بين ربيع سيناء وجذوة التيه
٢١١	البقرة تنتظر سكين الأباقرة
٢١٧	لقاء عند الصخرة
٢٢٧	قارون يتحدى
٢٢٩	عندما تغيب الشمس
٢٣١	عيسى النبي ﷺ: المسيح في القرآن والأنجيل
٢٣٣	مدخل
٢٣٥	مريم العذراء في سطور
٢٣٩	والسلام عليّ يوم ولدتُ
٢٤٩	وجعلني نبياً
٢٥٧	وما صلبوه ولكن شبه لهم
٢٦٧	عيسى ﷺ الإنسان
٢٧٣	وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ
٢٧٧	المصادر
٢٨١	المحتويات